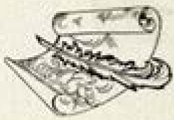
الأعلام من الأدباء والشعراء



لبيد بن ربيعة العامري

حياته وشعره

إعداد

حسن جعفر نور الدين

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

لبيد بن ربيعة العامري

حياته وشعره

إعداد

حسن جعفر نور الدين

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد. فهذه دراسة قصيرة حول لبيد بن ربيعة العامري، الشاعر المخضْرم، تناولت فيها عصره وبيئته، ثم تحدثت عن حياته وسيرته الأدبية، وفنونه الشعرية، ومعلقته، معتمداً أسلوب الإجمال.

والحديث عن الشعر الجاهلي طويل وشاق.

إنه الحديث عن الجاهلي نفسه بما يكتنف حياته من أضواء وظلال.

وحديث عن الجاهلية بكل تفاصيلها. وإنك لتستطيع من خلال شاعر جاهلي واحد أن تلم بالبادية ونظمها المعيشية وتاريخها وحضارتها.

وهكذا كان شعر لبيد. ابن الصحراء الجافة القاحلة القاسية

إلا أنه زاد غيره بتلك الومضات الدينية الإيمانية التي

حفلت بها قصائد كثيرة من نتاجه، وبتلك اللمحات الحكمية التي وشح بها شعره.

كان مؤمناً في جاهليته وفي إسلامه، إلا أن إيمانه في اسلامه إزداد عمقاً وأصالة.

عاش عمراً طويلاً. إلا أنه كان عمراً مشرقاً أضاءته تلك القيم التي كان بها يعتز، والتي لا تزال تخلد تاريخه عبر الأجيال، قيم الإباء والشرف والجود والنخوة والفروسية والنجدة أحب الحياة خالية من كل كدر. وصرف أيامه متنقلاً مسافراً مفتشاً عن الحقيقة في مفازات الصحراء وبين كثبانها الرملية الحارقة.

حسن جعفر نور الدين.

العصر الجاهلي

العصر والبيئة

معنى الجاهلية:

حدث هذا الاسم في الإسلام للزمن الذي سبق بعثة النبي محمد ﷺ، وقد ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى في سورة آل عمران: يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، وفي سورة الفتح: إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية، وفي سورة المائدة: أفحكم الجاهلية يبغون، وفي سورة الفرقان: وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً.

والمقصود بهذه الآيات ما كان عليه العرب قبل مجيء الإسلام من نزق وطيش وتهور واستبداد وحمق وسفه، فهم إذن جاهليين، لأنهم كانوا بعيدين ببعض ممارساتهم عن قيم الدين الحنيف وتعاليمه السمحاء. ولا يستغرق هذا السلوك كل العرب، فقد كان بينهم من توافرت فيه كل الصفات الحميدة، من حكمة وتعقل وروية.

أما أنهم جاهلين غير عالمين استناداً لمعنى الكلمة

اللغوي، فهذا لم يكن يتطابق مع ما عرف عن العرب الجاهليين من شعر راق جميل ونثر بليغ ومعرفة بالطب والفلك وفنون الحرب وأدواته والقتال وضروبه، وما خلفوه من آثار في فن العمران والهندسة.

وبهذا يكون الجهل الذي نعت به الجاهليون هو الجهل الديني، الذي يتنافى مع الأخلاق والقيم العليا التي حملها الاسلام رسالة محبة وتطور وحياة.

بلاد العرب الجاهليين:

بلاد العرب موطن شاعرنا لبيد تقع في أقصى الجنوب الغربي لقارة آسيا، يحدها من الشمال بلاد الشام، ومن الشرق الخليج العربي ومن الجنوب المحيط الهندي ومن الغرب البحر الأحمر، وتقسم سلسلة جبال السراة الجزيرة العربية إلى قسمين، فما انحدر إلى جهة الغرب نحو البحر الأحمر سمي تهامة، وما ارتفع نحو الشرق يسمى نجداً.

إن تتهمي فتهامة وطني
أو تنجدي إن الهوى نجد

وسميت سلسلة جبال السراة حجازاً لأنها حجزت بين تهامة ونجد، تتخللها كثبان رملية وآكمام خصبة وتقوم حولها القرى وتتفجر العيون.

والجزء الذي ينتهي به نجد في الشرق يشمل البحرين واليمامة وعمان، أما القسم الجنوبي فيسمى اليمن لأنه عن يمين الكعبة.

طول بلاد العرب من الشمال حتى الجنوب ١٤٠٠ ميل وعرضها ٨٠٠ ميل، ومساحتها ١٢٠ ألف ميل مربع. مناخها قاري شديد الحرارة كثير الجفاف، وأمطارها قليلة، لذلك قلّت فيها الأنهار والينابيع والغابات والنباتات، وانحصرت الزراعة والواحات في أماكن سقوط الأمطار.

ولقلة الغابات فيها قلّت حيواناتها الوحشية، كما يوجد في صحاريها بقر الوحش والظباء والنعام والغزلان والحمار الوحشي. وأهل الجاهليون الحيوانات الأليفة علة وجودهم في الصحراء، فمن لحومها وألبانها كانوا يأكلون ومن جلودها وأصوافها ينسجون فيلبسون، وبواسطتها يتنقلون.

أما مدن الجزيرة فكانت حيث استقر القوم في مواطن الخصب والأرزاق، وأهمها: صنعاء في اليمن وكان اسمها أزال، كثيرة الأشجار والمياه، اشتهرت بقصورها الفخمة الرائعة كغمدان وقصر العشب وفي اليمن زبيد قصبة التهائم قريبة من صنعاء، ومدينة مأرب إلى الشمال الشرقي من صنعاء، عذبة المياه رقيقة الهواء غنية بالرياض والبساتين، أما عدن فهي أقدم أسواق العرب في الجاهلية.

ومن مدن اليمن أيضاً نجران مدينة الأمن والسلام، كان يجار فيها الخائف وينجد المستغيث ويشبع الجائع وتقضي حاجات الطالبين، اشتهرت بقبتها التي كانت تظلل ألف رجل، وهي قطعة ساحرة ذات نخيل وأشجار، وأهم مركز تجاري في اليمن، تتفرع منها الطرق البرية نحو الشام والعراق، وساحاتها شهدت أعنف صراع بين اليهودية والنصرانية وكانت ذات شأن صناعي مهم، وفي اليمن أيضاً صعدة مبدعة النصال الصاعدية وظفار مدينة البساتين والعنبر.

أما مدن الحجاز فأهمها مكة، فيها بيت الله الحرام مقصد الحجيج كل عام، تحيط بها الجبال من جميع الجهات، كانت مسكن قريش سيدة العرب، وفي شمالي مكة يثرب بلد الآبار والعيون ومن أمهات المراكز الزراعية ببلاد العرب، وتوجد الطائف بستان مكة، اشتهرت بالدباغ والفاكهة وكانت فيها قبيلة ثقيف، وأخيراً مدينة خيبر مدينة النخيل.

ومن بلاد الطائف عكاظ كانت تقوم فيها أسواق العربية التجارية والأدبية، ومن مدن تهامة ينبع وجده والحديبية وتبوك ومن مدن البحرين هجر ومدينة الخط مصدرة الرماح الخطية.

أقسام العرب:

العرب ساميون نسبة إلى سام بن نوح. قسمهم المؤرخون عبر تاريخهم الطويل إلى ثلاثة أقسام.

١ـ العرب العاربة، أو البائدة وهما الذين بادوا وعفت آثارهم. كانوا يتكونون من شعوب مختلفة منها عاد وثمود والعمالقة، ومدين وطسم وجديس وهؤلاء أرسل الله غضبه عليهم فبادوا، كما تروي قصص القرآن الكريم.

العرب المتعربة: بقي نسلهم حياً وهم عرب الجنوب أو عرب اليمن والعرب القحطانيون نسبة إلى قحطان بن سام ويروى أنه أول من تكلم بالعربية، وأول من اتخذ صنعاء اليمن داراً للملك.

٣ ـ العرب المستعربة أو عرب الشمال، سكنوا تهامة والحجاز، وسموا بالعرب الاسماعيليين لأنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم (ع)، كما سموا بالعرب العدنانية نسبة إلى عدنان من نسل إسماعيل.

حياتهم ومعيشتهم:

اختلفت منازل العرب وطرق حياتهم تبعاً للظروف التي نشأوا فيها، فسكنوا المدن والقرى كانوا يسمون الحضر، والمنتشرون في البادية كانوا يسمون بدواً.

وقد عاش الحضر حياة استقرار وثبات إذ كانت تتوافر لهم مصادر الرزق حيث يسقط المطر وتفيض الآبار والعيون خاصة في يثرب والطائف وتبوك وخيبر واليمن أرض الله

السعيدة وجنته الوارفة الظلال، وكانت أغنى مدن شبه الجزيرة وأكثرها تحضراً ورقياً، فقد أقام الناس فيها قصورهم على أساطين محلاة بالذهب وعلقوا على أفاريز منازلهم صحائف ذهبية مرصعة بالجوهر وافترشوا الحرير ولبسوا الخز. وعرف الحضر التجارة وقد لعبت دوراً مهماً في تنشيط الحركة الاقتصادية في شبه الجزيزة العربية وكان لهم رحلات يقومون بها في مواسم معينة على مدار السنة، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر لهذه الرحلات التجارية، وكانت تقوم بين مناطق الداخل وبينها وبين الدول المجاورة كالهند ومصر والشام، وكانت مكة أهم مركز تجاري عند العرب، ففيها البيت الحرام وبئر زمزم، وعندما اشتد العداء بين الروم والفرس اعتمد الرومانيون على تجارة مكة، وعمرت أسواق العرب بالبضائع الأجنبية والعربية، فكان اللؤلؤ يستورد من فارس والأنسجة والسيوف من الهند، والحرير من الصين والأرقاء والقرود والعاج وريش النعام من الحبشة، وكان اليمنيون يحملون هذه البضائع مع غلات حضر موت وظفار إلى مصر والشام.

أما الصناعة فلم تكن مزدهرة، إلا أن العرب عرفوا شيئاً منها حيث استقروا، فازدهرت صناعة النصال الصاعدية في صعدة، وصناعة الدباغة في الطائف، والنسيج والحياكة

والنعـال والخفاف والأنـطعة في اليمن، وصنـاعـة السفن الصغيرة على سواحل البحار.

أما البدو الرحل فهم الكثرة الساحقة من السكان، عاشوا قبائل متناثرة في الصحراء المجدبة، لذلك فهم لم يبتنوا دوراً ثابتة ولا منازل مستقرة، وإنما سكنوا الخيم المصنوعة من جلود الحيوانات وكانوا يحملونها معهم أنى ظعنوا، يدفعهم إلى ذلك ضيق المكان وكثرة الحروب والغزوات، والتوسع الأُوسري ونضوب مصادر الماء والكلأ والظروف الطبيعية المفاجئة كما حدث للعرب بعد سيل العرم وانهيـار سد مأرب. وقد نسجت حول الرحلات الجاهلية قصائد كثيرة حتى صار ذكر الأحبة والديـار سنة عنـد معظم الشعـراء الجاهلين. وقد اعتمد البدو في حياتهم على ما في الصحراء من حيوان، فاتخذوه مصدر قوتهم اليومي، وكانوا يصطادون الوحوش ويقتلونها ثم يشوون لحمها ويأكلونه. أما الحيوانات المستأنسة فقد تعهدوها بالرعاية التامة لأهميتها بالنسبة لهم، كالإبل والغنم والمعز والخيل، فاتخذوا الإبل والغنم والمعز موارد لرزقهم يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويصنعون من أوبارها وأصوافها وجلودها ألبسة لهم ومساكن تقيهم الحر والبرد. واعتمدوا على الخيل في السلم والحرب، يصيدون بها الوحوش ويغيرون بها ويقاتلون، وهكذا فإن موارد رزق

البدوي، كانت هذه الحيوانات التي يملكها، وما يغنمه من الغارات والحروب، وما يتقاضاه من ضرائب يدفعها أصحاب القوافل التجارية التي تخترق الصحراء لقاء حمايتها، ورغم ذلك فقد كان بين البدو فقراء لجأوا إلى السلب والنهب وقطع الطرق في متاهات الصحراء ومفازاتها، فانعدم الأمن وصارت القوة هي القانون.

أسواق العرب:

أدت الحركة التجارية في بلاد العرب وتبادل السلع إلى قيام أسواق كثيرة، ثابتة وموسمية، وقد انتشرت هذه الأسواق في شتى مناطق شبه الجزيرة العربية، حتى يستفيد معظم الناس منها، وكان لكل منها وقت خاص وذلك كي يستطيع من شاء أن يحضرها كلها. ومن هذه الأسواق:

- دومة الجندل: تبدأ أول يوم من ربيع الأول من كل عام وتستمر شهراً أو نصف شهر.

- سوق هجر بالبحرين موعده في شهر ربيع الثاني.

- سوق عمان ويرتحلون إليها من سوق هجر وتبقى حتى آخر شهر جمادي الأولي.

- سوق المشقَّر (وهو حصن بالبحرين).

تبدأ في أول يوم من جمادي الثانية وسوق صحار مدتها خمسة أيام وتقوم في العشرين من شهر رجب.

- سوق الشحر، تقوم في النصف من شعبان، وسوق عدن أبين، تقوم في أوائل رمضان ومنها كان يحمل الطيب إلى سائر الدنيا.

- سوق صنعاء وتقوم في النصف الثاني من شهر رمضان وسوق ذي المجاز كانت تقوم بجانب عرفة.

- سوق مجنة قرب مكة موعدها مطلع موسم الحج وتحضرها معظم قبائل العرب وكانت تستمر سبعة أيام.

- سوق عكاظ أعظم الأسواق، كانت تقام أيام موسم الحج وتحضرها كل القبائل وبها كانت مفاخرة العرب ومهادناتهم، وكانت تستمر ثلاثين يوماً.

وقد لعبت هذه الأسواق أكبر أثر في تنمية الاقتصاد العربي، كما أنها شدت من عرى العلاقات الاجتماعية وقوت الروابط بين الأفراد والجماعات والشعوب المختلفة. وقد استعمل عرب الجنوب نقوداً من الذهب ومن الفضة في معاملاتهم التجارية، وتعامل أهل الحجاز بالنقود الرومية والفارسية فتبادلوا الدنانير والدراهم.

حالتهم السياسية:

قام في اليمن خلال العصر الجاهلي نظام الملكية ونشأت فيها دول مختلفة وحضارات، أما بقية المدن والقرى فكانت أنظمتها السياسية متباينة، فمكة كان يحكمها بعض رجال هم أصحاب الحل والعقد، يجتمعون في مقر خاص عرف بدار الندوة، يناقشون فيه أمورها ويعالجون قضايا الناس والحياة.

أما يثرب فقد تنازع السلطان فيها الأوس والخزرج، وبعد جدل وحرب بينهما رأوا أن يكون الحكم بينهم بالتناوب، سنة للأوس وسنة للخزرج فيعتلي السلطة ملك كل عام. وكان يحكم سائر المدن العربية عند ظهور الإسلام حكام يلقبون أنفسهم ملوكاً. إلا أن نوع الحكم لم يكن معروفاً، والظاهر أنه استبدادي مطلق.

أما البدو فقد ساد فيهم النظام القبلي، فلم تكن بينهم حكومة ترعى القانون وتنفذه، وتنشر العدل والرخاء بين ظهرانيهم، إنما كانت كل قبيلة دولة مستقلة ذات كيان إقليمي خاص لها حدودها وحرمها (الحمى)، وهذا الحمى مقدس عند القبيلة لا ينبغي أن يمسه أجنبي، وكان أفراد القبيلة وحدة متراصة متعاونين للمحافظة على شرف القبيلة وحماها وهم متساوون في ما بينهم ولا يدينون بالطاعة والولاء إلا لرئيس

قبيلتهم، وكان الفرد يعتمد على القبيلة في كل ما له من حقوق، فنشأت العصبية القبلية، وكان جميع الأفراد يختارون مجتمعين رئيس قبيلتهم (الشيخ) ليكون المعبر عن أمانيهم والمدافع عن قضاياهم، أوامره مستمدة من مداولات مجلس القبيلة، وكان الرئيس يختار من ذوي الشخصيات القوية، تتحقق فيه سمات الوقار والخزم والتضحية والإيثار والسخاء والشجاعة والقوة والحلم والصبر والتعقل، له خبرة بطبائع النفوس ومعالجة الأمور، يتسم بالإخلاص والأمانة والوفاء، ويسهر على المصلحة العامة.

وتظل القبيلة متمسكة بكل فرد من أفرادها ما دام يسير وفق قانونها وإرادتها، فإذا خرج عن ذلك خلعته من جماعتها ونفته من مجلسها وطردته من بينها، ثم إنها تتنصل منه على رؤوس الأشهاد وتعلن تبرؤها مما اقترفه من أعمال.

ولشدة اهتمام القبائل بالقرابة والصلة العصبية، احتموا بالأنساب، ونرى أثر ذلك في أشعارهم التي تفيض بذكر الأباء والأجداد والبنين والأحفاد، كما اشتهر قوم منهم بمعرفة أنساب العرب فسموا بالنسابين.

وكان الشعراء في قبائلهم لسان حالهم، والمدافعين عنهم والمذيعين لأمجادهم ومآثرهم والمخلدين تراثهم وأمجادهم.

حالتهم الاجتماعية:

أثّر نظام شبه الجزيرة القبلي وجدب الصحراء وضيق الأفق والرحيل في تكوين عادات العرب وسلوكهم الاجتماعي.

فحب البدوي لقبيلته جعله يتجاهل غيرها ولا يعرف بحق الملكية لأحد سواه، فكانت الحروب والغارات إلا في الأشهر الحرم، والقبيلة المنهزمة لا ترضى بالنتيجة، فلا بدّ من الانتقام والأخذ بالثأر، حتى صار من العار على القبيلة ألا تأخذ بثأر قتلاها، وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تخرج من قبره على هيئة طائر سموه الهامة وتصيح قائلة اسقوني ولا تكف عن الصراخ حتى يؤخذ بالثأر، فكل معركة كانت تتبعها معارك، وكل ثأر يتبعه ثأر آخر، حتى أصبح التراب العربي ميدان قتال لا يتوقف. كما أن حب العربي لنفسه ولعشيرته جعله يبالغ في فهم معنى الشرف، مما أوجد في نفسه الحمية الجاهلية، لذلك كان العرب يثورون لأتفه الأسباب، وكانت المرأة هي النقطة الحساسة في شرفهم، فأحاطوها بسياج من القيود وخافوا عليها من السبي والعار فلجأ كثير منهم إلى الوأد، وهو عمل منكر، استنكره كثير من الجاهليين.

وشاع لدى العرب إكبار الجميل وصنع المعروف ومساعدة

المحتاجين وإغاثة الملهوفين أقارب أم أباعد وإكرام النازل وحماية الجار:

أجود على الأباعد باجتداء
ولم أحرم ذوي قربى وإصر

كما أنهم عظموا الكرم، وكانوا يوقدون ناراً يهتدي بها الضيوف والضالون ويعرفون بها منازل القوم فيفدون حيث يجدون الترحيب الجميل والمقام الكريم.

وبالغ الجاهلي وأسرف إلى حد الإتلاف، وشرب الخمر ولعب الميسر وعشق الفروسية. كما كثر في الصحراء الواسعة الصيد والصيادون، فاقْتُنيت الجوارح من الطيور والحيوانات كالصقور والكلاب، ودُربت على الطرد والقنص.

وكان من أثر العصبية القبلية أن وجدت الحرية الشخصية، ولم يكن للحرية الاجتماعية وجود، فشاعت الفوضى وكانت الغلبة بينهم للقوة والبطش والسيادة للظلم والطغيان. وكان من أثر الحياة القاسية أن وجدت لديهم عادات ومعتقدات مدهشة بعيدة عن العقل والمنطق، ومنها الكهانة وتعني إدعاء علم الغيب، والعرافة وتختص بمعرفة الأحداث الماضية، والقيافة وهي الاستدلال من الآثار على الأعيان، والفراسة وهي الاستدلال بالنظر إلى وجه الإنسان على ما أضمره في

نفسه، وبالاستماع إلى كلامه على أمره، وبالنظر إلى هيئته على صناعته وإلى تقاطيع سحنته على أخلاقه، ثم الريافة وهي الاستدلال بالنظر إلى تربة الأرض وأعشابها على أمكنة الماء، والعيافة وهي زجر الطير، كأن يرمي بحصاة أو أن يصيح الرجل به، فإن فرّ يميناً تفاءل به، وإن يساراً تشاءم به. وشاع في العرب طرق الحصى بعضها بالبعض الآخر عند السؤال فيدعي الطارق بذلك معرفة الجواب، ولكن كثيراً من الشعراء أنكروا الزجر وعارضوا فكرته كقول لبيد:

لعمـرك ما تـدري الطوارق بـالحصى
ولا زاجـرات الطيـر مـا الله صـانـع

ومارسوا الاستقسام بالأزلام، فكانوا إذا أرادوا فعل أمر لا يدرون ما الشأن فيه أخذوا أقداحاً كتب على بعضها إفعل وعلى بعضها لا تفعل وعلى بعضها نعم وعلى بعضها الآخر لا، ثم أتوا سادة الكعبة فيضرب لهم بتلك الأقداح فما خرج له عملوا به. ولعبوا الميسر وهو ضرب من القمار، يعتبر من مفاخر العرب في العصر الجاهلي لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة والقحط والجوع.

وعبـد الجاهليـون الأصنـام والأوثـان وحملوا التمـائم والتعاويذ للمداواة، وعلقوا الحلى على اللديغ ليشفى، إذ

أنهم كانوا يشغلونه بصوت الحلي عن النوم كي لا ينام ويسري السم في جسمه.

حالتهم الدينية:

عرفت شبه الجزيرة العربية أدياناً مختلفة، كل منها له تطلعاته ومعتقداته ومنها: اليهودية دين موسى (عليه السلام) نسبة إلى يهودا أحد أسباط إسرائيل، والنصرانية دين المسيح (عليه السلام) نسبة إلى الناصرة أول قرية بث فيها دعوته، فقيل ناصري ونصراني ودخلت النصرانية بـلاد العرب زمن الحواريين تلامذة وخلفاء السيد المسيح. والوثنية وكان يعتنقها معظم العرب الجاهليين، إذ كانوا يعبدون الأصنام والأوثان مدعين أنها تشفع لهم عند الله. وكان لكل قبيلة صنم أو أكثر ومعظمها كان عند الكعبة حتى بلغت ثلاثمائة وستين صنماً.

الصابئة عبدة الكواكب، يعتقدون في الأنواء، والمجوسية عبدة النار وكانت في العرب في تميم ومن طقوسها الحلف بالنار والرماد وزواج البنات.

والزندقة من الثنوية وعقيدتها القول بالنور والظلمة، وإن الصانع اثنان إله نور وإله ظلمة والأول خير والثاني شر، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا قويين حساسين الموحدون وكانوا قلة عبدوا الله وحده ولم يشركوا بـه أحداً، ومنهم ورقـة

ابن نوفل وحنظلة بن صفوان وقس بن ساعدة الايادي وزهير بن أبي سلمى والنابغة الجعدي.

اتصالاتهم ومعارفهم:

كان العرب الجاهليون على اتصال ببعضهم البعض، وبغيرهم ممن جاورهم أو بعد عنهم، إذ أنهم لم يكونوا ليستطيعوا أن يعيشوا بمعزل عن العالم الخارجي، كما أن العالم الخارجي يهمه أن يكون على صلة بهم، وهكذا اشتدت صلة العرب بغيرهم من الأمم وبخاصة الفرس والروم والحبشة والهند، وقوى هذا الاتصال وجود إمارات عربية في الحيرة وغسان ونجد، ولم تكن التجارة فقط هي الصلة الوحيدة، فقد حمل التجار إلى جانب السلع طائفة من الأفكار والعادات والتقاليد، واللغات، كما أنهم نقلوا شيئاً أهم وأعظم قيمة من التجارة هو حروف الهجاء، وهي نفسها حروف القرآن الكريم. وقد أسهمت التجارة والرحلات في الكشف عن كثير من ظواهر الحضارة والمدنية، فتأثرت كل أمة بالأخرى.

وكان العرب على جانب من المعارف، أسهمت العلاقات الآنفة الذكر في تكوين بعضها، فقد اطلعوا على أخبار الأمم السابقين وغيرهم بما كانوا يروون من القصص، فمن سكن

الحيرة وجاور العجم قد حوى علم الأعاجم وأخبارهم وكذلك من سكن الشام خبِر بأخبار الروم واليونان، ومن رحل إلى البحرين أتته أخبار طسم وجديس ومن وقع بعمان أتته أخبار السند والهند، ومن مرّ باليمن أتته أخبار الأمم جميعاً.

ولشدة اتصال العرب بالصحراء الواسعة عرفوا كثيراً عن صفات الأرض وخصائص الحيوان والحشرات وأنواع الأشجار وعرفوا شيئاً عن النجوم وأبراجها.

كما أنهم عرفوا الكثير عن تركيب أجسام الحيوانات وعن أمراضها وعللها فتكّون لديهم شيء من طب البيطرة.

كذلك دفعتهم ظروف الحياة إلى إجراء تجارب على أجسامهم حينما كانت تلم بهم العلل والأسقام، فعرفوا شيئاً من الطب، إذ كانوا يعالجون بالأشربة المتخذة من العسل والمركبات المصنوعة من بعض الأخلاط واستعملوا الكي بالنار لذلك شاع في الجاهلية هذا المثل (آخر الدواء الكي) وعرفوا الحجامة وقد اشتهر منهم أطباء كالحارث بن كلده الثقفي والذي درس الطب في بلاد فارس وابنه النضر بن الحارث ثم ابن رومية التميمي وكان جراحاً ماهراً وابن حذيم وكان يضرب به المثل في الطب.

ولما كانت القبيلة وحدة سياسية واجتماعية كاملة، فقد اهتموا بحفظ الأنساب واشتهر منهم كثير بحفظ أنسابهم

وأنساب القبائل الأخرى حتى عرفوا بالنسابين. ثم إن أحاديثهم في مجالسهم وتنافسهم في مجتمعاتهم، خاصة في الأسواق ومواسم الحج أوجد عندهم نهضة بلاغية حتى اشتهروا بالفصاحة والبيان، وما تركوه من شعر هائل رائع ومن نثر جميل يدل على بلوغهم مرتبة عليا في الذوق الأدبي الرفيع، لذلك كثر الشعراء، وغص بهم كل ناد ومكان، وما وصلنا منه شيء قليل، كما أن العرب الجاهليين تركوا ثروة من الحكم والأمثال تكشف عما كان لديهم من خبرة قوية بالحياة وأحوال النفس البشرية، ومن أشهر حكمائهم أكتم بن صيفي وعامر العدواني. وساعدت الظروف التي عاشوا فيها على كثرة الحروب والغارات، فتكونت لديهم خبرات عن القتال وأدواته فعرفوا الرماح والسيوف والقسي والسهام والدرع والترس وحركات الكر والفر والطعن والضرب والرمي، وشعر الحرب خير شاهد على ذلك.

وقد كانت بلاد العرب محاطة بالبحار لذلك استغلوا المكان بالصيد، وبالتجارة مع الهند والحبشة والروم، فاضطروا إلى ركوب البحر ومعنى ذلك أنهم كانوا على شيء من علم الملاحة وصناعة السفن بدليل قول عمرو بن كلثوم:

ملأنا البر حتى ضاق عنا
وماء البحر نملؤه سفينا

والملاحة اضطرتهم إلى معرفة كثير من النجوم والكواكب للاهتداء بها في سيرهم عبر البحار. أما علم الخط والكتابة، فلم يكن ينتشر بينهم، وإنما كان موجوداً فيهم، وقد ورد في قصائدهم وأخبارهم ما يدل على ذلك، لذلك اعتمدوا على ذاكرتهم في حفظ الشعر والنثر، ويقال بأن مرامرة بن مرة الأنباري هو أول من كتب العربية واخترع الخط العربي. وهكذا حفل العصر الجاهلي بثروة هائلة من الشعر والشعراء، ولو وصلنا كله لما استطعنا له حصراً. وكان فيه شعراء مبرزون شغلوا العصر الجاهلي وظلوا الشغل الشاغل لكثير من الكتاب والأدباء في الماضي وفي الحاضر. ومن هؤلاء شاعرنا لبيد بن ربيعة العامري.

- السيرة الذاتية
- السيرة الأدبية

السيرة الذاتية:

لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن قيس بن عيلان بن مضر، قدم على النبي مع وفد قومه بني جعفر بن كلاب، فأسلم وحسن إسلامه، فهو أحد شعراء الجاهلية المعدودين فيها والمخضرمين، ومن أشراف المجيدين الفرسان القراء المعمرين.

يكنى أبا عقيل وكان يقال لأبيه ربيعة المقترين لجوده، قتلته بنو أسد وعمه أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة في يوم ذي علق ولبيد آنذاك لما يتجاوز التاسعة من عمره، ولقب عمه بهذا الاسم لقول أوس بن حجر فيه:

فلاعب أطراف الأسنة عامر
فراح له خط الكتيبة أجمع

أما أمه فهي تامرة بنت زنباع العبسية إحدى بنات جذيمة بن رواحة. ويكاد يكون تاريخ مولده مجهولاً، لذلك فهو مصدر تباين بين المؤرخين، ولو أخذنا بأخبار الأغاني بأنه مات في آخر أيام معاوية بن أبي سفيان وكان عمره مئة وخمسة وأربعين عاماً (١٤٥) لعلمنا أنه ربما يكون قد ولد

سنة ٥٣٤ م تقريباً، لأن الأصفهاني يرى أن الشاعر عاش تسعين سنة في الجاهلية وخمسة وخمسين في الإسلام، ومهما يكن فإن لبيداً كان من المعمرين، فعمره لم ينقص عن مئة وعشر سنوات (١١٠) في ما ورد من أخبار.

شارك قومه بني جعفر في الارتحال عن ديارهم نحو نجران بعد صدور حكم بنفيهم من زعيم أبي بكر جواب بن عوف، وهاك نسمع لبيداً يتهكم على جواب فيقول له:

أبـنـي كــلاب كـيـف تُـنـفـى جـعــفــر
وبــنــو ضـبـيـنـة حــاضــرو الأجــبــاب

وفي المنفى اتصل لبيد ببعض الأمراء اليمنيين والأحباش ومنذ ذلك الوقت بدأ اسمه يلمع على أنه لسان قومه، فقد توسط عند الأمير الحبشي (خمير) في رد إبل على صاحبها فاستجاب الأمير إلى سؤاله وكتب له بذلك كتاباً وأعطاه جماعة من الغلمان الأحباش الشاكي السلاح.

ولم يشأ لبيد أن يخرج على مباديء الوئام والوفاق التي سادت من جديد بين قبيلته وبين قبيلة بني أبي بكر وزعيمها جواب، وكانت نفس لبيد قد هدأت إثر النفي فأنشد قائلاً:

فــابـلـغ بـنـي بـكــر إذا مــا لـقـيـتـهـم
على خيــر مــا يلقى بــه من تــزعمــا

أبــونــا أبــوكــم والأواصــر بــيــنــنــا
قــريب ولم نــأمــر مــنيعــاً ليــأثــمــا.

وهكذا أخذ نجم لبيد في الصعود، ولما شكل أهله وفداً للتسليم على النعمان وتهنئته بالملك كان لبيد معهم، إلا أن الربيع بن زياد وهو خال لبيد كان يحقد على بني جعفر، لذلك أخذ يصدّ الملك عنهم وينصحه بعدم استقبالهم والاحتفاء بهم، وغاية القول أن لبيداً انتصر لأعمامه ونظم أرجوزة قالها أمام النعمان وبحضور الربيع بن زياد وفيها كان المدافع الصلب عن حق قومه:

نــحــن بــنــي أم الــبــنــيــن الأربــعــة
ونــحن خــيــر عــامــر بــن صــعــصــعــة
الــمــطــعــمــون الــجــفــنــة الــمــدعــدعــة
والــضــاربــون الــهــام تحت الــخــيــضــعــة

وانتزع بذلك حقوقهم إذ أمر النعمان بقضاء جميع حوائج الجعفريين.

وهي حادثة ظل يفتخر بها في شعره وقد سجلها في معلقته:

وكــثــيــرة عــزبــاؤهــا مــجــهــولــة
تــرجــى نــوافــلــهــا ويــخــشــى ذامــهــا.

وكان لبيد يقف دائماً موقف المفاخرة أمام الملك في وفادته المتكررة عليه ويخطط بقوسه في الرمل خطوطاً بعدد مفاخرة كما كان يفعل الأبطال.

وقد عززت هذه المواقف من تجربة لبيد وعمقت شخصيته وشهرت إسمه كشاعر في الآفاق، وكفلت له تقدير القبيلة وجعلته يتعرف إلى أبهة الملوك ورفعت من منزلة النعمان في نفسه لنراه يرثيه عندما توفي سنة ٦٠٢م بقصيدة باكية، ويتميز رثاؤه بنغمة دينية مستمدة من الإحساس بجبروت الموت.

إلى جانب ذلك، كان لبيد من أجود العرب، وقد آلى في الجاهلية ألا تهب صبا إلّا أطعم، مما جعل الولاة يستنجدون به في الملمات، ويروى أن المغيرة بن شعبة كان إذا هبت ريح صبا، خطب الناس وقال لهم: أعينوا أبا عقيل على مرؤته، كذلك كان يفعل الوليد بن عقبة والي الكوفة، فإذا هبت صبا قال للناس: أعينوا أبا عقيل وأنا أول من فعل. ويصدق حديث الرواة في هذا قول لبيد نفسه:

وجـزور أيـسـار دعـوت لـحـتـفـهـا
بـمـغـالـق مـتـشـابـه أجـسـامـهـا

أدعــو بــهــن لــعــاقــر أو مــطفــل

بــذلــت لجيــران الجـمـيــع لـحــامهــا

وفي الإسلام كان لبيد من القوم الذين حسُن إسلامهم، ويظهر أن الإسلام كان عميقاً في نفسه، يدل على ذلك سؤال الوليد بن عقبة عما كان بينه وبين الربيع بن زياد عند النعمان فقال له لبيد: هذا كان من أمر الجاهلية وقد جاء الله عز وجل بالإسلام. ولما كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة أن يستنشد شعراء المصر أرسل إلى لبيد فقال له إن شئت فاعفني، فقال لا أنشدني ما قلت في الإسلام، فكتب له سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها وقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر فزاد عمر في عطائه خمسمائة.

ويقال بأنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً يشكر فيه ربه الذي أنعم عليه بنعمة الهداية والرشاد:

الـحـمــد لله الــذي لـم يــأتـنـي أجـلـي

حـتى لـبــسـت مـن الإســلام ســربــالا

وقبل أن يأتي الإسلام، كان قلب لبيد مفعماً بالإيمان بالله، مطبقاً لكثير من الشواهد على قوة إيمانه بالله وبالموت والحياة.

وغاية القول أن لبيداً قد أسلم، وأتى المدينة فأقام فترة فيها، ثم هاجر إلى الكوفة لعهد عمر بن الخطاب وقضى فيها بقية حياته. مقبلاً على القرآن الكريم يحفظه ويتأمل أبعاده ومراميه.

السيرة الأدبية:

سبق وذكرنا أن لبيداً كان من أشراف الشعراء المجيدين المقدمين، وقد جعله ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء في الطبقة الثالثة مع النابغة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ بن ضرار، وقال عنه: كان لبيد بن ربيعة أبو عقيل، فارساً وشاعراً شجاعاً، وكان عذب المنطق، رقيق حواشي الكلام، وكان مسلماً رجل صدق.

كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

وذكره الأصمعي فلم يعده من الشعراء الفحول، إلا أنه قال: شعر لبيد كأنه طيلسان طبري ومعنى ذلك أنه جيد الصنعة، كما ذكر أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول: (ما أحدٌ أحبُّ إليَّ شعراً من لبيد بن ربيعة، لذكره الله عز وجل ولإسلامه ولذكر الدين والخير، ولكن شعره رحى بزْر).

أما ابن رشيق صاحب العمدة فقد ذكر أن ذا الرمة قال: لبيد أشعر الناس؛ ويروى أن النابغة الذبياني نظر يوماً إلى لبيد وهو صبي مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر، فسأل عنه فنسب له، فناداه قائلاً: يا غلام إن عينيك لعينا شاعر، أفتقرض من الشعر شيئاً، قال نعم يا عم وأنشده:

ألم تربع على الدمن الخوالي
لسلمى فالمذانب فالقفال

فقال له: أنت يا غلام أشعر قومك فانشدني أيضاً، فقال:

طلل لخولة بالرسيس قديم
فبعاقل فالأنعمين رسوم

فضرب بيديه على جنبيه وقال: إذهب فأنت أشعر قيس كلها، ثم قال هوازن كلها.

ثم قال له أنشدني أيضاً فانطلق لبيد قائلاً:

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها

فقال له النابغة: إذهب فأنت أشعر العرب.

ويحكى أن الفرزدق سجد عندما سمع أحدهم ينشد قول لبيد أمام مسجد بني الأقيصر بالكوفة:

وجــلا الــسيـــولُ عــن الــطلول كــأنهــا
زُبُــرٌ تــجــدُّ مــتــونــهــا أقــلامــهــا

فقيل له: ما هذا يا أبا فراس؟ فقال: (أنتم تعرفون سجدة القرآن، وأنا أعرف سجدة الشعر) وحكم الفرزدق يحمل الكثير من المعاني.

ولم ينس لبيد أن يحكم على شعره بنفسه، فقد سأله قوم من بني نهدٍ عندما مرّ أمامَ مجلسهم بالكوفة من أشعر العرب؟ فقال: الملك الضليل ذو القروح، وذلك هو أمرؤ القيس، ثم سألوه ثم من: فقال: الغلام القتيل من بني بكر، ويعني به طرفة بن العبد، وعندما سألوه للمرة الثالثة ثم من فقال: صاحب المحجن يعني نفسه وكان يتوكأ على محجن له.

وعندما أرسل جماعة من القراء ابن عياش إلى لبيد يسأله عن أشعر العرب وهو في المسجد وفي يده محجن أجابه: الملك الضليل ذو القروح، ثم عادوا فأرسلوه إليه فقال له: ابن ثماني عشرة سنة طرفة بن العبد، وفي المرة الثالثة قال: صاحب المحجن حيث يقول:

إن تــقــوى ربــنــا خــيــر نــفــل
وبــإذن الله ريــثــي وعــجــل
أحــمــد الله ولا نــدّ لــه
بــيــديــه الــخــيــر مــا شــاء فــعــل

من هــداه سبــل الــخيــر اهــتــدى
نــاعــم الــبــال ومــن شــاء أضــل

يعني نفسه. ثم قال أستغفر الله.

وكان الخليفة العباسي المعتصم يعجب بشعر لبيد، فسأل يوماً جلساءه من يروي قصيدة لبيد (بلينا) فقال أحدهم أنا، فقال له أنشدنيها:

بـلينــا ومــا تـبلى الـنـجــوم الـطوالـع
وتـبقـى الجبـال بعــدنــا والـمصــانــع

فبكى المعتصم ثم اندفع هو ينشد ويقول:

فــلا جــزع إن مــزق الــدهــر بيننــا
فكـل امـرىء يـومـاً لـه الـدهـر فـاجـع

وقال: فوالله لعجبنا من حسن ألفاظه وصحة إنشاده وفصاحته وجودة اختياره.

ويحكم طه حسين على معظم قصائد لبيد بالجودة ورصانة اللفظ وجزالته وجماله، وروعة الأسلوب وصدق التعبير، وهو يرى أن معلقته خليقة أن تكون من أروع ما حفظ الشعر العربي.

تلك شهادات في لبيد وشعره. وكلها تجمع على أنه شاعر

مجيد، دوَّم في الأعالي وكانت له مزايا في الشعر وفي الشخصية لم تكن لسواه.

وتكاد معاني شعره تنطبق تماماً مع الصور التي رسمتها المصادر عنه، فقد كان رجلاً مؤمناً عاقلاً رزيناً أبياً بعيد النظر، محترماً في قبيلته وبني قومه فارساً شجاعاً كريماً، خبر الحياة وأحس بمرارتها فعمل جهده على أن ينقيها من كل ألوانها الباهتة لتصبح نقية جميلة حية.

وديوان لبيد ينطوي على كثير من أغراض الشعر وفنونه. وأشهر ما فيه المعلقة.

وتكاد قصائد وصف الصحراء وحيواناتها ومظاهر الرحيل، علاوة على قصائد الفخر والرثاء تستغرق ثلاثة أرباع الديوان إن لم يكن أكثر من ذلك.

واشتهر لبيد بشعر الرجز وبرع فيه، وله في هذا المضمار عدة قصائد مبثوثة في أرجاء ديوانه.

وتظل المعلقة الجزء الأهم، ففيها وقف على الأطلال وتغزل وافتخر ووصف الصحراء وما فيها من ظباء وأتان وبقر وحشي وكلاب وأشار إلى مظاهر الطبيعة فذكر شتاءها وربيعها وصيفها وأمطارها وحرها وسحابها ونباتها، وتحدث عن مظاهر الرحيل ووصف ناقته وصفاً دقيقاً وعبّر عما يخالجه من

مشاعر الحزن والألم والحيرة، وعما يبتغيه من حياة سعيدة قائمة على الحق والإباء والبهجة والفرح، ثم لجأ إلى الفخر، فتحدث عن خصال نفسه وشمائل قومه ومزاياهم.

ومعلقة لبيد تعتبر الرابعة بين أخواتها. لم ينظمها الشاعر لحادثة جرت له أو مرت معه وإنما كانت استجابة لدافع نفسي ورغبة ذاتية. ولعله تفوق فيها على أقرانه بإثارة الذكريات القديمة وتحديد محطات السفر حتى أن دارس شعره باستطاعتة أن يعين دليل رحلة تبدأ من قلب بادية العرب وتنتهي على الخليج الفارسي.

وقد عني أئمة اللغة والأدباء بشعره كثيراً فجمع ديوانه غير واحد منهم: أبو عمرو الشيباني والأصمعي والطوسي وابن السكيت والسكري وشرحه محمد بن حبيب والطوسي، كما أن معلقته قد شرحت مع سائر المعلقات على يد ابن النحاس وابن الأنباري والتبريزي والزوزني وحديثاً على يد الدكتور مفيد قميحة، كما نشرتها دار صادر في بيروت.

الفنون الشعرية

- الحكمة.
- الرثاء.
- الوصف.
- الفخر.

١ـ الحكمة والتأمل:

في شعر لبيد لمحات حكمية، تنبثُ في كثير من قصائده كما ينتشر العطر في الأجواء، فتراه من خلالها إنساناً مؤمناً بالله وبحتمية الحياة والموت وبقضاء الرحمن وقدره، ملتزماً قيماً أخلاقية حميدة ومبادىء إنسانية جعلته موقراً في جاهليته وفي إسلامه. وحكمة لبيد ليست بالعميقة ذات الأبعاد الواسعة، يكفي أنها شاملة خالدة، ترافق كل جيل وكل تاريخ. وقد درسنا في باب الرثاء قصيدته العينية التي قالها في تأبين أخيه أربد، وفي الحقيقة أنها تفيض بالحكم والمثل، ففي كل بيت منها حكمة وموعظة تكشف عن نظر ثاقب وبعيد في طبيعة الكون والحياة.

وله في قصيدة رائية معان حكمية كثيرة، يؤيد فيها أن لا سلامة للإنسان من قدر الموت، لذلك عليه أن يتزود بالهدى والصلاح والعمل الطيب، وأن يشتري بماله الحمد والذكر الحسن، وإن كان الإنسان يرى نفسه سالماً معاني، فإن أمره لا يدوم إلى الأبد، فكل الناس سائرون إلى مصير واحد، وما النفس إلا متعة تعار للإنسان وتستعاد منه:

أعـــاذلَ قـــومي فـــاعـــذُلي الآن أو ذَري

فلستُ وإن أقصــرتِ عنـي بِمُـقْصِـــر(١)

أَعَـــاذِلَ لا واللهِ مـــا مـــن سَـــلاَمَـــةٍ

ولـــو أشفقت نفسُ الشحيحِ المثمّـــر(٢)

أفي العِـــرضَ بـالمـــال التِّلادِ وأشتـــري

به الحمدَ إن الـطالبَ الحمدَ مُشْتَـرِي(٣)

وكم مُشتـــرٍ من مـــالـــه حُسنَ صِيتِـــهِ

لأيـــامـــه في كـــل مَبْـــدىً ومَـحْضَـــرِ(٤)

فـــإمـــا تـــريني اليـــوم عِنـــدكِ ســـالمـــاً

فلستُ بـــأحْيـــا من كِـــلابٍ وجـعفـــر(٥)

وإنـــا وإخـــوانـــاً لـنـــا قـــد تـتـــابـعـــوا

لكـــالمغتـــدِي والـــرائـــحِ الـمُتَـهَجِّـرِ(٦)

هـــل الـنـفسُ إلا مُـتـعَـــةٌ مُـسْـتَـعـــارةٌ

تُـعـــار فتـــأتي رَبَّـهـــا فَـــرْطَ أشْـهُـــرِ(٧)

---

(١) أقصرت: كففت عن العذل.

(٢) المثمر: جامع الأموال.

(٣) التلاد: المال الموروث، العرض، الشرف، أو طيب الثناء.

(٤) الصيت: الشرف والذكر.

(٥) كلاب وجعفر هما من أقرباء لبيد.

(٦) تتابعوا: تعاقبوا في هذه الحياة.

(٧) فرط أشهر: بعد أشهر.

وفي قصيدة أخرى يتأمل الشاعر الوجود، ويشكف عن إيمان عميق بالله عز وجل، فلله كل شيء أمره نافذ وقضاؤه لا يتبدل، كتابه محفوظ وعرشه دونه السبع الطباق، خلق الأرض فيها رواسي بإذنه وجعل الماء والنيران آيات وموعظة لقوم يعقلون، فتدبر أيها الإنسان أمرك فكل ما تبنيه سراب إلا إيمانك وتقواك:

لـلـهِ نـافِـلَةُ الأجـلُّ الأفـضَـلِ
ولـه الـعُـلى وأثـيـثُ كـل مُـؤثَّـلِ[1]
لا يـسـتـطيـعُ الـنـاسُ مَحْـوَ كـتـابـهِ
أنـى ولـيـس قـضـاؤهُ بـمُـبَـدَّلِ
سَـوَّى فـأغـلقَ دون غُـرَّةِ عَـرشِـه
سَبْعـاً طِبـاقَـاً فـوق فـرعِ المَنْقَـلِ[2]
والأرضَ تَـحـتـهُـمُ مِـهَـاداً راسِـيـاً
ثـبـتتْ خـوالِقُـهَـا بـصم الـجَـنْـدَلِ[3]
والـمـاء والـنـيـرانُ مـن آيـاتِـه
فـيـهـن مـوعـظَةٌ لـمـن لـم يـجـهـلِ

(١) الأثيث: الكثرة. المؤثل: الدائم الراسخ الأصول.
(٢) المنقل: ظهر الجبل. المعقل: الحصن أو الجبل.
(٣) الخوالق: الجبال الملس.

بـل كُـلُّ سعيِـك بـاطـلٌ إلا التُّقَـى
فـإذا انـقضـى شيءٌ كـأن لـم يُـفـعـل

والقصيدة كلها تنبض بالمعاني الحكمية، إلا أن ما ورد من أبيات منها كان أعم وأشمل، والملاحظ أن كثيراً من هذه المعاني والكلمات تتطابق حرفياً مع بعض ألفاظ القرآن الكريم، وهذا ما يجعلنا نشك في الرواية التي تقول أن لبيداً قال بعد إسلامه بيتاً واحداً من الشعر، فهذه القصيدة أكثر التصاقاً بالإسلام من الجاهلية، علماً أن الشاعر عاش في الإسلام خمسة وخمسين عاماً ولا أظن أنه قضاها دون نظم الشعر، وخاصة ذلك الذي يتوافق مع الدعوة الإسلامية ويبشر بالدين الجديد. وعلى هذا فالأرجح أن تكون هذه القصيدة من وحي الإسلام، وأن لبيداً قالها في عصره الإسلامي.

وفي مستهل رثائه للنعمان بن المنذر يعرض لبيد طائفة من حكمه وتأملاته في الإنسان والحياة، فينصح المرء ألا يقع في ضلال، فالدنيا غيـر خالـدة له، لأن مصـايد المـوت له بالمرصاد، وعمل المرء لا ينتهي إلا بانتهاء حياته، ثم يدعو الإنسان كي يتعظ من الدهر فهو لا يستطيع استعادة الماضي، ولا النجاة مما هو مرسوم له، ثم وإذا كان لا يصدق فلينظر إلى ما حل بأجداده الأوائل، لعل القرون السابقة تهديه إلى

الصواب، فكل شيء إلى زوال سوى الله، والعاقل هو الذي يتوسل إلى الله بالطاعة والعمل الصالح:

ألا تسألانِ المرءَ ماذا يُحاوِلُ
أنَحْبٌ فيقُضى أم ضَلالٌ وباطل
حَبَائِلُهُ مبثوثةٌ بسبيلِهِ
ويفنى إذا ما أخطأتْهُ الحَبائِلُ(١)
إذا المرءُ أسْرى لَيلَةً ظن أنه
قضى عملاً والمرءُ ما عاش عامِلُ
فقولا له إن كان يقسم أمرَهُ
ألما يَعِظْكَ الدهرُ أُمُّكَ هَابِلُ(٢)
فتعلمَ أن لا أنت مدرِكٌ ما مضى
ولا أنت مما تحذَرُ النفسُ وائِلُ(٣)
وإن أنت لم تصْدُقْكَ نفسُك فانتسب
لعلك تهديك القرون الأوائِلُ
أرى الناس لا يدرون ما قدرُ أمرِهم
بلى: كل ذي لب إلى الله واسِلُ(٤)

---

(١) الحبائل: المصايد. مبثوثة: موضوعة.

(٢) يقسم: يقدر ويتدبر. هابل: ثاكل.

(٣) وائل: ناجٍ.

(٤) واسل: المتخذ وسيلة.

ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا الله باطِلُ
وكلُّ نَعِيمٍ لا محالةَ زائِلُ

ثم يتابع لبيد فيذكر أن كل امرىء سوف يدركه الموت، وسيأتي يوم يحاسب فيه كل إنسان عما جنت يداه، عندما يقف أمام الله يوم الحساب:

وكلُ أناسٍ سوف تدخلُ بينهم
دُويهيةٌ تَصْفَرُّ منها الأناملُ[1]
وكل امرىءٍ يوماً سيعلمُ سَعْيَهُ
إذا كُشِّفَتْ عند الإله المَحاصِلُ.[2]

وللشاعر مقطع حكمي جاء في قصيدة طويلة عرض فيها مشاهد الصحراء والرحيل، وقد ركز لبيد على أهمية الورع والتقوى في حياة الإنسان فهما التجارة الرابحة والثروة المفيدة التي يحملها الإنسان إلى مقره الأخير، فلا ينفع الإنسان إلا ما يتركه من ذكر حسن وما يقوم به من عمل طيب:

رأيتُ التُّقَى والحمدَ خيرَ تجارةٍ
رَباحاً إذا ما المرءُ أصبح ثَاقِلا[3]

---

(١) دويهية: تصغير للتعظيم، أي داهية كبيرة.
(٢) المحاصل: الحسنات والسيئات معاً. وتروى: الحصائل.
(٣) رباحاً: ربحاً. ثاقلاً: ميتاً.

وهـل هـو إلا مـا ابتنى في حيَـاتِـه
إذا قـذفُـوا فـوق الضـريـح الجنَـادِلا[1]
وأثـنـوا عـليـه بـالـذي كـان عِـنـدَهُ
وعَضَّ عـليـه العـائـداتُ الأنـامِـلا[2]
فـدع عنـك هـذا قـد مضى لسبيله
وكَـلِّفْ نـجيَّ الـهَـمِّ إن كـنـت رَاحِـلا

وله قصيدة أخرى مفعمة بالمعاني الحكمية، قالها حزناً على فراق بني جعفر للجزيرة حين خرجوا في الفتوحات الإسلامية، وهي دليل ساطع على أن لبيد أنظم الشعر في حياته الإسلامية، وانفعل بالدين الجديد:

إنـمـا يـحـفظُ الـتُّـقَـى الأبـرارُ
وإلـى الله يـسـتـقِـرُّ الـقـرارُ[3]
وإلـى الله تُـرجَـعُـونَ وعـنـد
الله وِرْدُ الأمـور والإصْـدارُ[4]
كُـلَّ شـيءٍ أحـصـى كـتـابـاً وعـلـمـاً
ولـديـهِ تـجـلَّـت الأسـرارُ[5]

(١) ابتنى: أقام ورفع. الجنادل: الصخور.
(٢) العائدات: زائرات المحتضر.
(٣) يستقر القرار: ترجع جميع الأمور. التقى: الورع.
(٤) ورد الأمور: بيد الله كل شيء.
(٥) يروى: أحصى كتاباً وحفظاً. تجلت: تكشفت.

يـوم لا يُـدْخِـلُ الـمُـدَارِسَ فـي الـر
حـمـةِ إلا بـراءةٌ واعـتِـذَارُ[1]

فالأبرار هم حفظة التقى والأمناء عليه، والله سبحانه وتعالى مرجع البشرية، إليه يعودون وإلى رحمته يفيئون، إنه عالم الغيب والأسرار، أحصى لكل شيء علماً، ولا يدخل المذنب في رحمة الله إلا إذا تاب وتبرأ من أعماله واعتذر عن انحرافه.

ثم يتابع الشاعر مشيراً إلى أن الله أعد كتبة حافظين يحصون حسنات الإنسان وسيئاته، وأنه وحده الغفور الرحيم، وهكذا سيذهب الإنسان مهما طال عمره ولا يبقى إلا تلك الجبال والرمال والنجوم، ولا تخلد إلا الأعمال الصالحات التي هدى بها الله الإنسان:

وَحِـسَـانٌ أعـدَّهُـنَّ لأشـهـا
دٍ وغَـفْـرُ الـذي هُـوَ الـغَـفَّـارُ[2]
ومـقـامٌ أكْـرِمْ مـن مَـقَـامٍ
وهَـوادٍ وسُـنَّـةٌ ومَـشَـارُ[3]

---

(١) المدارس: المقترف للذنوب.

(٢) حسان: حسنات الأعمال. الأشهاد: الكاتبون: المحصون للحسنات والسيئات. الغفر: التجاوز عن السيئة.

(٣) هواد: الأمور التي تهدي. مشار: عمل صالح.

إن يكُنْ في الحياةِ خَيْرٌ فقد
أُنظِرْتُ لو كان ينفعُ الإنظَارُ
عِشتُ دهراً ولا يدومُ على الأ
يامِ إلاّ يرمرمٌ وتِعَارُ[1]
والنجومُ التي تتَابَعُ بالليلِ
وفيها ذاتَ اليمينِ ازورَارُ[2]

وفي قصيدة دالية يذكر الشاعر طول عمره وسأمه من الحياة مستخلصاً مواعظ وحكماً خالدة، معلناً عن إيمانه بوحدانية الله، وهنا يتأكد لنا مرة أخرى أن لبيداً قال الشعر في الإسلام، لأن هذه القصيدة نظمها وهو في مرحلة الشيخوخة:

قُضِيَ الأمورُ وأُنْجِزَ الموعودُ
والله ربي ماجدٌ محمودُ
وله الفواضلُ والنوافلُ والعُلا
وله أثيثُ الخيرِ والممدود[3]
ولقد بَلَتْ إرمٌ كَسيْدَهُ
ولقد بَلَتْهُ بعد ذاك ثمودُ

---

(١) يرمرم وبعار: أسماء جبال.

(٢) ازورار: ميل.

(٣) النوافل: العطايا والهبات. الأثيث: الكثير الملتف.

خَلُّوا ثيابَهُمُ على عَوْرَاتِهِم
فهم بأفنِيَةِ البُيوتِ هُمُود[1]
ولقد سئمتُ من الحياة وطولِها
وسؤالِ هذا الناسِ كيف لبيدُ.

فالشاعر يؤكد من جديد إيمانه بالله الماجد المحمود، فله ومنه كل شيء، له ومنه الفضل والخير والعطاء والمجد، فليتعظ الإنسان، ولينظر ما حل بعاد وثمود، وإرم ذات العماد، ثم يعلن بعد ذلك سأمه من طول الحياة مذكراً بما قاله زهير بن أبي سلمة في هذا الشأن حيث قال:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

ولبيد عاش مئة وخمسة وأربعين عاماً، فكان أحرى بالسأم.

وفي قصيدة لامية من الديوان يشير لبيد إلى بعض المعاني الحكمية، ويستهلها بمطلع يفيض بالتقى والإيمان، فهو يحمد الله الذي لا شريك له، بيده الخير وهو ملكوت كل شيء، ويرى أن تقواه فضل لا يقاس بفضل، بإذنه يتحرك

(١) الأفنية: جمع فناء وهو ساحة الدار. همود: موتى.

الإنسان، ومن تبع تعاليمه اهتدى ومن خالفها وحاد عنها ضلّ وهوى:

إن تقوى رَبِّنَا خيرُ نَفَلْ
وبإذن الله رَيْثي وعَجَلْ[1]
أحمدُ الله فلا نِدٌّ له
بيديهِ الخيرُ ما شاء فعل
من هداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدى
ناعِمَ البالِ ومن شاءَ أَضَلّ.

ثم يتابع متحدثاً عن أهمية البر والإحسان، وضرورة العمل من أجل النجاح والفوز في الحياة، ويدعو إلى الرحيل في سبيل الحياة والتطور، ويهاجم الكسل ويحث على تجنبه، وينصح الإنسان بأن يحدث نفسه دائماً بالظفر وبلوغ الأمل وليس بالخيبة والفشل، وأن يقهرها بالبر والإحسان:

فإذا جُوزِيتَ قرضاً فاجزِهِ
إنما يجزي الفتى ليس الجمَلْ[2]
أعْمِلِ العِيسَ على عِلّاتِها
إنما يُنْجِحُ أصحابُ العمل[3]

(١) يروى: خير النفل، والنفل الفضل والعطية. الريث: الإبطاء.
(٢) الفتى: السيد الكريم. الجمل: الجاهل.
(٣) العلات: الحالات.

وإذا رُمْتَ رَحِيلاً فارتحل
واعصِ ما يأمُرُ تَوْصِيم الكسل[1]
واكذِبِ النفس إذا حدثتها
إن صِدْقَ النفس يُزْرِي بالأمل[2]
غير أن لا تكذِبَنْهَا إذا حدثتها
واخْزُهَا بالبرِّ لله الأجَل[3]

وبعد، أظن أن لبيداً كان شاعر الحكمة والتأمل بحق، والديوان غني بومضات حكمية، إكتفينا بالإشارة إلى قسم منها، ولعل عمره الطويل الذي قارب قرناً ونصف قرن من الزمن زوده بتجارب من الحياة والوجود، إنعكست على شعره.

(١) التوصيم: التكسير والتفتير.
(٢) أي حدث نفسك بالظفر دائماً لتنشطها ولا تحدثها بالخيبة فتثبطها.
(٣) اخزها: اقهرها. البر: المعروف. التقى: الورع.

الرثاء أو في العالم الآخر.

برع لبيد في فن الرثاء وأجاده، وأثار إعجاب القدماء والمحدثيـن. مما حدا بطه حسين إلى تفضيله على الخنساء، خاصة في تصوير الحزن. والديوان مليء بقصائد التفجع والتأسي، فلبيد شاعر قبيلته يمدح أحياءها ويرثي موتاها. لذلك انقسم الرثاء عنده إلى قسمين: رثاء عام يتعلق بأفراد قبيلته وغيرهم، ورثاء خاص كان معظمه إن لم يكن كله في أخيه لأمة أربد، وهذا ما سنشير إليه، وقد محض لبيد أخاه غرر معانيه ودفق مشاعره وأحاسيسه، وقد غيرت طبيعة وفاة أربـد حياة لبيـد، وكانت الحـد الفاصـل بين الجـاهليـة والاسلامية فيه، وقصة أربد أنه وفد على النبي مع عامر بن الطفيل قصد الغدر به، فعصمه الله منهما، ودعا عليهما، فأما عامر فمات بالطاعون وهو ما زال على مشارف المدينة، أما أربد فإن حياته لم تطل في بني قومه إذ أصابته صاعقة فقتلته.

وطفق لبيد ينشد أربد عيون قصائده، ففي قصيدته العينية وهي أشمل ما في الديوان جمع فيها إلى الرثاء الحكمة والموعظة والتأمل والزهد، وقد بدأها بمطلع يؤمن بحتمية الموت:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالعُ
وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانع[١]
وقد كنتُ في أكناف دار مَضنَّةٍ
ففارقني جارٌ بأربَد نَافِعُ[٢]
فلا جَزِعٌ إن فرق الدهر بيننا
وكل فتى يوماً به الدهر فاجِعُ
وما الناس إلا كالديار وأهلها
بها يوم حَلُّوها وغدواً بَلاقِع[٣]
وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئه
يحور رماداً بعد إذ هو ساطع[٤]
وما المال والأهلون إلا وديعة
ولا بدّ يوماً أن تُرَدَّ الودائع
وما البر إلّا مُضْمراتٌ من التقى
وما المال إلّا مُعَمرَاتٌ ودائع[٥]

فلبيد مؤمن بحتمية الموت لا يجزع للفراق، إنه سنة

(١) المصانع: المباني تتخذ للماء. أو هي القصور.
(٢) أكناف: جوانب. جار مضنة: جار يضن به.
(٣) غدواً: غداً. بلاقع: قفار.
(٤) يحور: يصير. ساطع: مشتعل، مضيء.
(٥) المعمر: الموضوع وديعة.

الكون وحكمة الله في مخلوقاته، وتتسارع كما رأينا في مطلع القصيدة معانيه الحكمية لترينا شاعراً رزيناً عامراً بالإيمان في رهبة الموت، زاهداً بمتاع الدنيا مؤكداً على أن ثروة الإنسان تقاس بمقدار تقاه وعمله. إنها قيم إنسانية خالدة تبني الحياة والأخلاق.

ثم يتابع الشاعر فيميز بين نوعين من الناس، واحد يبني وآخر يهدم، واحد شقي وآخر سعيد، واحد قصير وآخر طويل، وهو يؤكد على أن الإنسان لا يدري ما تخبئه له الأيام، ومن هنا ينطلق ليشن ثورة شعواء على أحاديث العائفين والقائفين والضاربين بالحصى والمتحدثين بعلم الغيب، فأمر الغيب منوط برب العزة وحده تعالى عما يشركون:

ومـا الـنـاسُ إلّا عـامـلان فـعـامـلٌ
يُـتَـبِّـرُ مـا يـبـنـي وآخَـرُ رافِـعُ[1]
فـمـنـهـم سـعـيـدٌ آخـذ لـنـصـيـبـهِ
ومـنـهـم شقيٌّ بـالـمـعـيـشـةِ قـانِـعُ[2]

---

(١) يتبر: يخسر ويهلك. رافع: يقيم البناء ويرفعه.
(٢) تروى آخذ بنصيبه.

فلا تَبْعَدَنْ إن المنية موعدٌ
عليك فدانٍ للطلوعِ وطالعُ[1]
أتجزعُ مما أحدث الدهر بالفتى
وأيُّ كريم لم تُصِبْهُ القوارِع[2].
لعمرُكَ ما تدري الضواربُ بالحصى
ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صَانِعُ
سلُوهُنَّ إن كذبتُموني متى الفتى
يذوق المنايا أو متى الغيثُ واقعُ

وهكذا نرى كم في هذه القصيدة من حكمة وموعظة، وجزالة ورصانة، وبساطة في اللغة والتركيب، وجمال في اللفظ والمعنى، وهو أخيراً يحملك إلى أقرب المواضع وأبعدها بسهولة ويسر.

وفي قصيدة أخرى من رثائياته يتحدث لبيد عن أخيه اربد فقط دون الغوص في قضية الحياة والموت والإنسان والوجود، فهي وجدانية خالصة، يندب في مطلعها أخاه إشفاقاً عليه مما فعله ومما حلّ به بعد محاولته الغدر بالرسول

(١) دانٍ للطلوع: قريب الأجل.
(٢) القوارع: الدواهي، المصائب.

الأعظم ﷺ، وهو يخاطب (مي) ابنة أخيه طالباً منها أن تحيي ذكراه وتندبه فتى شهماً شجاعاً، عميداً في قومه:

يـا ميُّ قُـومِي في المـآتـمِ وانـدبي
فتى كـان ممن يبتني المجد أرْوَعـا[1]
وقــولــي ألا لا يُـبْـعِـدِ الله إربَـدَاً
وهَـدي بـه صَـدْع الفؤاد المُفَجَّعَـا[2]
عميـدُ أنـاسٍ قـد أتى الـدهـرُ دونـه
وخـطوا له يـومـاً من الأرض مضجعـا[3]

ثم يتحدث عن مشاعره الوجدانية نحو أخيه، وإفاضاته الأخوية الحزينة:

لعمـر أبيـك الخيـر يـا ابنـة أربْـد
لقـد شفـني حـزنٌ أصـاب فـأوجعـا
فـراقُ أخٍ كـان الـحـبيـبَ فـفـاتـنِي
وولـى بـه رَيْبُ الـمنـون فـأسـرعـا
فـعـيـنَـيَّ إذ أودى الـفـراقُ بـأربـد
فـلا تـجمُـدَا أن تـستـهـلا فتـدمـعـا

(١) الأروع: الشهم الشجاع. ومية إبنة أربد.
(٢) الصدع: الشق.
(٣) عميد: رئيس.

فتى عارفٌ للحق لا يُنْكِر القِرَى
تـرى رَفْـدَهُ للضيفِ مـلآن مُتْـرَعًـا[1]
لحـا الله هـذا الـدهـرَ إني رأيتُـهُ
بصيـراً بمـا سـاء ابنَ آدم مُولعًـا

فيعلن الشاعر حزنه على أربد، إنها العاطفة الأخوية المشبعة بروح الصدق، لذلك فهو لا يبخل عليه بالحزن والدموع لأنه كان كريماً شجاعاً مضيافاً، ومثله خليق بالرثاء وبالبكاء. ويكشف في نهاية القصيدة عن برمه بهذا الدهر المولع بالإساءة إلى الإنسان والنيل منه.

وبعد لعل ما في هاتين القصيدتين التاليتين ما يكفي لإلقاء الضوء على شخصية أربد وخصائصها، ولا أغالي إذا قلت أن أكثر من ربع ديوان لبيد كان في أخيه، وفي ذلك تأكيد على العاطفة الإنسانية الأخوية التي تنضح بها نفس الشاعر.

ففي القصيدة الأولى يرثي لبيد أخاه ويذكر شمائله ومكارمه وأخلاقه، فقد كان حامي الشرف مانع الضيم، المدافع عن حياض القبيلة فارس الهيجاء يوم الفزع الشديد:

---

(١) الرفد: القدح العظيم.

ألا ذهب المحافظ والمحامي
ومَانِعُ ضيمِنَا يومَ الخِصَام(١)
وأيقنتُ التفرقَ يوم قالوا
تُقُسِّمَ مالُ أرْبد بالسهام(٢)
وأربدُ فارسُ الهيجا إذا ما
تَقَعَّرَت المشاجِرُ بالخِيام(٣)

ويتابع الشاعر فيتحدث عما كان عليه أربد من كرم وجود، فإبله تعود إلى الحي من المرعى لينال من خيرها الأيتام فيحمدونه ويذكرونه بالخير والفلاح، كما كان يهب جارته العطايا ويحرص على رعايتها عندما تدخل داره وهي تثني عليه الثناء الحسن، حتى لكأن بيت أربد هو الحرم الذي يأمن به الناس ويطمئنون:

إذا ما تعزُبُ الأنعامُ راحت
على الأيتامِ والكَلِّ العِيَامِ(٤)

---

(١) الضيم: الظلم.
(٢) السهام: النصيب. أيقنت: تأكدت علمت.
(٣) تقعرت: تقوضت. المشاجر: الخشب توضع عليه الأمتعة.
(٤) تعزب: تبعد في المرعى. الكل: العيال. العيام: جمع عيمان وهو الذي يشتهي اللبن.

فَيحْمَدُ قِدْرَ أربد من عَراها
إذا ما ذمّ أرباب اللِّحام[1]
وجارَتُهُ إذا حلّتْ إليه
لها نَفَلٌ وحَظٌ في السَّنام[2]
فإن تقعُدْ فَمُكرمَة حَصَانٌ
وإن تَظْعَنْ فمُحْسِنَةُ الكلام[3]
نواءلَ يومَ ذلك من أتاه
كما وأل المُحِلُّ إلى الحَرامِ[4]

ويودع لبيد في النهاية أخاه، أخاه الذي يعرف الناس أفضاله ومكارمه أيام الشدة في فصل الشتاء، عندما تيبس البقول وتجف الضروع، فقد كان إماماً ومرشداً لأهله وأصحابه، وبغيابه ضل الناس وأضحوا بعده أشباحاً لا ينفرون لغارة أو غزو:

فودِّعْ بالسلامِ أبا حُزَيز
وقَلَّ وَدَاعُ أربد بالسلامِ[5]

---

(١) عراها: أتاها طالباً خيرها.

(٢) النفل: العطية.

(٣) حصان: عفيفة، أبية. محسنة الكلام: تثني على أربد ثناء حسناً.

(٤) وأل: نجا. المحل: الرجل المحل. الحرام: البيت الحرام.

(٥) أبو حزيز تصغير لكنيته، فهو أبو حزيز بفتح الحاء.

يُفضِّلُه شتاءَ الناس مجدٌ
إذا قُصِرَ الستُورُ على البِرَامِ[1]

وكنتْ إمَامَنا ولنا نِظَاماً
وكان الجزْعُ يُحْفَظُ بالنظامِ[2]

وليس الناسُ بعدكَ في نقيرٍ
ولا هم غيرُ أصداءٍ وهَامِ[3]

وإنا قد يُرى ما نحن فيه
ونُسْحَرُ بالشراب وبالطعامِ[4]

كما سُحِرَتْ به إرامٌ وعَادٌ
فأضحَوا مثلَ أحلام النِّيامِ

وفي القصيدة الثانية يرتجز لبيد معدداً مزايا أخيه أربد ومكارمه، فقد كان الكريم والرئيس واللطيف العطوف،

---

(١) يروى: يفضله سناء الناس مجداً. المجد: الشرف والذكر الطيب. قصرت الستور: نزلت وأسلبت. البرام: جمع برمة وهي آنية الطعام. ومعنى ذلك أنها لا تستعمل لقلة الألبان ويبس البقول في فصل الشتاء.
(٢) النظام: الخيط الذي ينظم فيه اللؤلؤ. الجزع: الخرز.
(٣) يروى: بعدك في نفير. النقير: النقرة خلف النواة والمعنى ليس الناس بعدك في شيء. أصداء: نوع من الطيور وكذلك الهام، ومعنى ذلك أنهم ليسوا سوى أشباح.
(٤) نسحر: نعلل، نبهت.

يعطي دون توقف ويهب طمعاً في الذكر الحسن والصيت الطيب.

إنعَ الكريمَ للكريم أربدا
إنع الرئيس واللطيف كَبِدَا[١]
يُحْذِي ويعطي ما له لِيُحْمَدَا[٢]
أُدْماً يُشَبِّهْنَ صُوَراً أُبَّدَا[٣]
السابلُ الفضلِ إذا ما عُدِّدَا[٤]
ويملأ الجفنة ملأً مددا[٥]
رِفْهاً إذا يأتي ضَريكٌ ورَدَا[٦]
مثلُ الذي في الغَيلِ يقْرُو جُمُدَا[٧]
يزداد تُرْبَاً منهم أن يُوعَدا[٨]
أورثتنا تُراثَ غَيرِ أنكدا
غِنَىً ومالاً طارفاً وأتلدا[٩]

---

(١) اللطيف الكبد: العطوف.

(٢) يحذي: يعطي.

(٣) الأدم: الإبل البيض. الصوار: قطيع بقر الوحش. أُبذا: مستوحشة

(٤) السابل: الضافي السائغ.

(٥) المدد: المكثر. الجفنة: القصعة الكبيرة.

(٦) رفهاً: دائماً. الضريك: الفقير.

(٧) الذي في الغيل: كناية عن الأسد.

(٨) فهم: يعني الأعداء. يوعد: يوجه إليه التهديد.

(٩) الطارف: المال المحدث. الأتلد: المال الموروث.

شَرْخاً صُقُوراً، يافعاً وأمْرَدا[١].

ورثى لبيد غير أخيه أربد ممن تربطه بهم علاقات وطيدة، وممن أثاروا في نفسه الإعجاب والاحترام، ومنهم عمه مالك بن عامر ملاعب الأسنة والملقب بأبي براء، وقصيدته فيه من أراجيز النواح، عامرة بالمعاني الصادقة والمشاعر المرهفة، وكان عمه هذا قد خالفت بنو عامر أوامره عندما شاخ، واتهمته بضياع العقل، فآلمه ذلك، وما لبث أن شرب الخمر ثم اتكأ على سيفه وقتل نفسه:

قُوماً تجوُبانِ مع الأنواح[٢]
في مأتمٍ مُهَجِّر الرَّواحِ[٣]
يَخمِشْنَ حُرَّ أوْجُهٍ صِحَاح
في السُّلُبِ السود وفي الأمْسَاحِ[٤]
وأبِّنَا مُلاعِبَ الرماح
أبا بَراءٍ مِدْرَةَ الشِّيَاحِ[٥]

---

(١) شرخاً: شباناً.

(٢) يروى: تنوحان وتجوبان: تقدان القميص. والأنواح: جمع نوح (جماعة النائحات).

(٣) مهجر: مبكر وتعني السير في الهاجرة والرواح: العودة عند المساء.

(٤) السلب: الثياب السود. الأمساح: ثياب من شعر.

(٥) مدرة القوم: المدافع عنهم. الشياح: الجد والقتال والحذر.

يا عامراً، يا غَابِرَ الصباحِ[1]
ومِذْرَةَ الكتيبة الرَّدَاحِ[2].

فالشاعر يدعو إلى بكاء عمه مالك بن عامر وإقامة مآتم متواصلة إحياء لذكراه تحييها النائحات، فيخمشن أوجههن حزناً ويلبسن ثياباً سوداء حداداً.

وأبو براء هذا هو المدافع المخلص عن شرف قومه في القتال، والشجاع المشهود له في الغارات والحروب.

ثم يتابع الشاعر رثاءه لعمه، فقد كان غياث المستغيثين ومنجد الفقراء والمعدمين، والملاذ والمنقذ في زمن القحط والجفاف عندما تهب ريح الشمال التي تحمل البرد وتميت المواشي:

لَوْ أن حيّاً مُدرِكَ الفَلاحِ
أدركَهُ ملاُعِبَ الرماحِ
كان غياثَ المُرْمِلِ المُمْتَاحِ[3]
وَعِصْمَةً في الزمنِ الكَلاحِ[4]

---

(١) يروى: يا عامر القداح. وعامر الصباح: المشهور بالغارة في الصباح. وعامر القداح: أي الكريم الذي يلعب الميسر.
(٢) يروى وعامر الكتيبة. والرداح: الضخمة.
(٣) المرمل: الفقير المعدم. الممتاح: الذي يسأل رزقاً.
(٤) يروى في السنة. العصمة: الملجأ. الكلاح: السنة المجدبة.

حين تَهُبُّ شمالُ الرِّيَاحِ[1]

ويرثي في مقطوعة صغيرة عوف بن الأحوص الشجاع رجل الفوارس والحروب، أعظم الناس بياناً وحلماً، إمام قومه وبقية النفر الصالح والسلف الكريم:

قُـومِـي إذا نـامَ الـخَـلِيُّ
فـأبُـنـي عَـوْفَ الـفَـواضِـلْ[2]
عـوفَ الـفـوارسِ والـمـجـا
لسِ والـصـواهِـلِ والـذوابِـلْ[3]
يـا عـوفُ أحـلـمَ كـلِّ ذي
حـلـمٍ وأقـولَ كـلِّ قـائِـلْ
يـا عـوفُ كـنـتَ إمَـامَـنَـا
وَبـقِـيَّـةَ الـنـفـرِ الأوائِـلْ

أما رثاؤه للملك النعمان بن المنذر ٦٠٢ م فقد تميز بنغمة دينية مستمدة من الإحساس بجبروت الموت وزوال العظمة الإنسانية، لذلك حفلت قصيدته بمطلع حكمي غزير المعاني، وكانت علاقة الشاعر بالنعمان قد بدأت عندما دخل

(١) خص الشمال لأنها عندهم تجيء بالبرد فتموت المواشي.
(٢) الخلي: الخالي من الهم، الذي لا يهمه شيء من أمر الفقد.
(٣) المجالس: المحافل والمنتديات. الصواهل: الخيول. الذوابل: الرماح.

عليه مع وفد من بني قومه مدافعاً عنهم مهاجماً موقف خاله الربيع بن زياد منهم إذ كان يصد الملك عن الاحتفاء بهم ويكيد لهم.

وقد أبَّن الشاعر الملك النعمان وتحدث عما كان يتمتع به من خمور ولحم صيد ومن مآثر في فك الأسرى والكرم والجود ومن نعمة عريضة سابغة هائلة وأسلحة ماضية:

لِيبكِ على النعمان شَرْبٌ وقَيْنةٌ
ومُخْتَبِطَات كالسَّعالي أرامِلُ[1]
له المُلْكُ في ضاحي معدٍ وأسلمت
إليه العبادُ كلُّها ما يُحاول[2]
إذا مَسَّ آسَارَ الطيورِ صَفَتْ له
مُشعشعةً مما تُعتِّقُ بابِلُ[3]
عَتِيقُ سُلافاتٍ سَبَتْهَا سَفِينَةٌ
تَكُرُّ عليها بالمزاجِ النَّياطِلُ[4]

---

(١) الشرب: الشاربون. المختبطات: اللواتي يسألن معروفاً. السعالي: جمع سعلاة وهي الغول وقد شبه الأرامل بهن لتشعثهن. الأرامل: الجياع.

(٢) ضاحي معد: ظاهر معد. العباد: قبائل العباد بالحيرة.

(٣) آسار: جمع سؤرة وهي البقية من لحم الصيد هنا.

(٤) سبى الخمر: حملها من بلد إلى بلد. النياطل: جمع ناطل وهو كوز تكال به الخمر.

بـاشهبَ مـن أبكـار مُـزْنٍ سَحـابَـةٍ
وأرْيِ دَبُـورٍ شَـارَهُ النحـلَ عـاسِـلُ[1]
تـكُـرُّ عـليـه لا يُـصَـرَّدُ شُـرْبَـهُ
إذا مـا انتشى لم تحتضـره العـواذِلُ[2]
على مـا تُـريهِ الخمرُ إذْ جـاشَ بَحْرُهُ
وأوشَـمَ جُـودُ مـن نَـداهُ ووَابِـلُ[3]
فيـومـاً عنَـاةٌ فـي الحـديـد يفُكُّـهم
ويـومـاً جِيـادٌ مُلجَمـاتٌ قَـوافِـلُ[4]
ويـومـاً من الـدُّهْمِ الـرِّغـابِ كـأنهـا
أشَـاءٌ دنـا قِـنْـوَانُـه أو مـجَـادِلُ[5]
فـإن امـرأً يـرجـو الفـلاحَ وقـد رأى
سَـوَامـاً وحَيّـاً بـالأفـاقـةِ جَـاهِـلُ[6]

---

(١) الأشهب: الأبيض وعنى به الماء. الأري: العسل. الدبور: النحل. شاره: جناه. العاسل: الذي يشتار العسل.

(٢) لا يصرد: لا يقطع. لم تحتضره: لم تكن حاضرة لديه.

(٣) جاش بحره: فاض، طما. أوشم: لمع.

(٤) العناة: الأسرى. قوافل: عائدة من الغزو.

(٥) الدهم: الإبل السود. الرغاب: الكثيرة. أشاء: صغار النحل مفردها أشاءة. القنوان: جمع قنو وهو عذق النخلة. المجادل: جمع مجدل وهو القصر.

(٦) الفلاح: الخلود والبقاء. السوام: الماشية. الحي: الناس.

فليبك على النعمان الشاربون والجواري، والأرامل البائسات المعدمات، فقد كان مفرج كرباتهم ومنقذهم من وطأة الجوع والحرمان. وقد كان ملكاً مطاعاً شديد البأس جواداً كريماً فارساً رؤوفاً بالأسرى شجاعاً، قضى أيامه في الغزو والحروب وعاش في يسر ورفاهية وترف، ومن هنا فليتعظ المتعظون، فكل من رأى عظمة النعمان ثم موته وظن أنه سيخلد على وجه الأرض فهو جاهل غبي.

٣- فن الوصف، أو الرحلة في قصيدة لبيد:

كان لفن الوصف في داووين الشعر الجاهليين مساحة واسعة، فقد عاشوا في صميم البيئة الصحراوية وتأثروا بها، وجابوا مفازاتها وكثبانها، فانطلقوا يصفون ما فيها من رمال وطلح ونؤي وأطلال، وما يسرح في جنباتها من ظباء وبقر وحشي وأتان، وفرضت عليهم الحياة التنقل، والظعن من مكان لآخر فوصفوا مشاهد الرحيل وأحيوا ساعاته الحاسمة، وتحدثوا عن معاناتهم وأشواقهم وحبهم وحبيباتهم ناقلين لنا صورة رائعة جميلة مختزلين في أبيات تـاريخهم وتراثهم وحضاراتهم.

ولبيد أحد هؤلاء الشعراء، فقد عكف على وصف مشاهد الرحيل ومناظر الحياة الصحراوية، وما يكتنفها من نبات وحيوان، فتحـدث عن الأماكن الدارسة وما اعتراها من وحشة وكآبة، وما طرأ عليها من تحول وانقلاب، وأحيا ساعات الرحيل بما تثيره من حزن وشجون، ووصف النوق والظعائن وتنقل الرواحل في الصحراء عبر كثبان الرمل، وغـابات النخيل، وما تشاهده في طريقها من ظباء وبقر وحشي وأتان وكلاب.

فالرحلة في قصيدة لبيد لوحة صحراوية جميلة وصف فيها معالم الصحراء وكائناتها. وهذا ما نجده في كل قصائد وصف الرحيل التي وردت في الديوان، كذلك نجد صورة لبيد المحب، المحب العاقل الذي لا يتحدث عن حبه وحده، وإنما مرتبطاً بموقف شامل من الحياة.

وها هو في هذه القصيدة يتغنى بمناظر الحياة الصحراوية ويصف ساعة الرحيل:

راح القطينُ بهجرٍ بعدما ابتكروا
فما تُواصِلهُ سلمى وما تَذَرُ(١)
كأن أظْعانَهم في الصبحِ غاديةً
طلحُ السلائل وسط الروض أو عُشَرُ(٢)
أو باردُ الصيف مسجورٌ مزارِعُه
سُودُ الذوائِب مما مَتَّعتْ هجر(٣)

---

(١) القطين: أهل الدار، الساكنين فيه. الهجر: الهاجرة، أي نصف النهار.

(٢) الأظعان: النساء في الهوادج. الطلح: نوع من الشجر. السلائل: اسم موضع، مفردها سليل وقيل معناها الروض. العشر: نبت له ثمر بحجم البطيخة الصغيرة.

(٣) بارد الصيف: يعني الماء البارد. مسجور: ممتليء. الذوائب: الأغصان. متعت: ربت وسقت. بارد الصيف: نخل ناعم النبات في الصيف.

جَـعْـلٌ قِصَـارٌ وعَـيْـدَانٌ يـنـوء بـه
مـن الكَـوافِـر مكمُـومٌ ومُـهْـتَـصِـر[1]
يـشـربن رفـهـاً عـراكـاً غيـر صـادرة
فـكُلهـا كـارِعٌ فـي المـاء مـغتـمِـرُ[2]
بين الصَّـفَـا وخـليـجِ العينِ سـاكـنـةٌ
غُلبٌ سـواجدُ لم يـدخُـل بهـا الحَصَـرُ[3]

فهذه صورة وصفية رائعة لمشاهد في الصحراء، تدل على استمتاع أصيل بالطبيعة، فالناس رحلوا في رابعة النهار، النساء في الهوادج لطلح السلائل وسط الرياض الغناء، أو كأنها نخل هجر الناعم المشبع بالخضرة الزاهية، يتبدى بين طويل وقصير وهو ينوء بثقل الطلح المتدلي والمكموم، تغمره المياه حتى عروقه باستمرار، وهو يتهادى بين العيون لا يضيره برد الماء.

أرأيت هذه الصورة الوصفية لمشاهد المياه المتدفقة بين

---

(١) جعل: قصار النخل. العيدان: طوال النخل. ينوء به: يثقله. الكوافر: الطلع. المكموم: الذي لا يزال محجوباً في كمامنه. المهتصر: المتدلي.

(٢) رفهاً: كلما أرادت. عراكاً: يردن جميعاً. مغتمر: مغمور العروق في الماء.

(٣) الصفا: منطقة في هجر. غلب: غلاظ الأعناق. الحصر: عدم نمو النبات جيداً.

النخيل في هجر، وهذا الربط الجمالي بين النساء في الهوادج وبين نخل هجر.

فلبيد يصف نفسه من خلال مشهد الرحيل، فهو عاشق عاقل عشق الحياة بكل ما فيها من جمالات، وشقي لفراق أحبابه الراحلين ولتنكرهم له، فاجتهد في ارتهان قلب سلمى، ولكنه كان يخرج صفر اليدين، فهو يشكو من تقلبها، فلا هي تصله ولا تذره، وهو بين اليأس والرجاء يتألم، وذلك شأنه مع كل حبيباته، الصدود والإعراض.

ثم ينتقل الشاعر فيصف محبوبته سلمى وهي متحببة ضخمة تكل وتضعف الأبصار، تنبعث من فمها في الليل رائحة جميلة، لقد تعلق بها ولكنها الأنثى التي تنكر الشيب والكبر، وتصل في غير حب ومودة خالصة، لا ترضى في ذلك الحجة ولا تقبل السبب، وكأنه يصف لنا بذلك مطاردة بينه وبين الدهر، فإذا أنس من حبيبته إصغاء مضى يجمل نفسه في عينيها، وإن رأى صدوداً أخذ ينتقم من الدهر بالكرم والشرب واعتساف القفار على ناقة لا تعرف الكلال:

وفي الحُدوجِ عَرُوبٌ غيرُ فاحِشَةٍ
رَيَّا الروادِف يَعْشى دُونها البصرُ[1]

(١) الحدوج: مراكب النساء. العروب: المتحببة لزوجها. ريا الروادف: ضخمة العجيزة. يعشى: يكل ويضعف.

كأن فاها إذا ما الليلُ ألبسها
سَيَابَةٌ ما بها عيبٌ ولا أثرُ[1]

قالت غداةَ انتجيْنَا عند جارتِها
أنت الذي كنتَ لولا الشيبُ والكبرُ[2]

فقلت ليس بياضُ الرأسِ من كِبَرٍ
لو تعلمين وعند العالِمِ الخبرُ[3]

لو كان غيري سليمى اليوم غَيَّرَهُ
وقعُ الحوادثِ إلا الصارمُ الذَّكرُ[4]

ما يمنعُ الليلُ ما هممتُ به
ولا أحارُ إذا ما اعتادني السفرُ[5]

وللشاعر قصيدة أخرى في الحديث عن الأطلال والرحيل يصف فيها معظم حيوانات الصحراء، ويبدو في مطلع القصيدة ظل سلمى لا يفارقه كما لم يفارقه في القصيدة السابقة، وهو يذكر الأماكن التي كانت تمرّ بها وتسكنها معرباً عن شعوره تجاهها وحبه الجارف لها، ثم يستعيد تلك

(١) ألبسها: شملها وغطاها.
(٢) انتجينا: تناجينا.
(٣) الخبر: اليقين. تعلمين: تدرين.
(٤) المعنى: أنا لم أتغير، ولو أصابت الحوادث غيري لغيرته. الحوادث: الشدائد. الصارم الذكر: السيف القاطع.
(٥) هممت به: عزمت على إنفاذه. أحار: أتحير.

الصورة القديمة الجديدة، يوم ارتحل أهلها، فخلا الدار بعد أن كان يموج بساكنيه وأصبح مسرحاً للنعام والجمال، وأسراب البقر الوحشي تتفيأ ظلال الأشجار:

أَلَمْ تُلْمِمْ على الدِّمَنِ الخَوَالي
لِسَلْمى بالمذانِبِ فالقُفَالِ[1]
فَجَنْبي صَوْأَرٍ فنِعافِ قَوٍّ
خوالدَ ما تَحدَّثُ بالزوالِ[2]
تَحَمَّلَ أَهْلُها إلاّ عِراراً
وعَزْفاً بعد أَحْياءٍ حِلالِ[3]
وخَيْطاً من خَوَاضِبَ مؤلِفاتٍ
كأن رِئالَها أُرُقُ الإفالِ[4]
تَحَمَّلَ أَهلُها وأَجدَّ فيها
نِعَاجُ الصيفِ أَخْبِيَةَ الظِّلالِ[5]

---

(١) تلمم: تقف. الدمن: آثار الديار. المذانب والقفال: أسماء مواضع.

(٢) صوأر: اسم موضع. النعاف: رأس الوادي. قو: موضع.

(٣) تحمل: ارتحل. العرار: صوت ذكر النعام. العزف: انهيار الرمال وما تحدثه من دوي. الحلال: المقيمون. حي حلال: كثير العدد.

(٤) الخيط: القطيع من النعام. خواصب: اصطبغت أطرافها بماء الأعشاب. مؤلفات: تعيش مع آلافها. الرئال: صغار النعام. الإفال: جمع أفيل وهو الفصيل، أي الجمل الصغير.

(٥) أجد: اتخذ منزلاً جديداً. النعاج: بقر الوحش. أخبية: جمع خباء وهو البيت.

ثم ينعطف واصفاً ما ألم به من حزن وشوق عندما مرّ أمام أطلال ديار حبيبته، وكان يتمنى لو يلتقيها هناك، ولكن الأطلال الدارسة الجامدة لا يسكنها الأحياء، ويبدو لبيد كما يظهر في كل قصيدة من قصائده صاحب حظ سيء في علاقته مع من يحب، ويبدو أنه لم يكن صاحب حظوة عند النساء، وهذا ما جعله ينشد الجمال في مكانه الأرحب حيث الطبيعة الجذابة الساحرة ملك للجميع، لذلك فهو يهدد ويعلن أنه ذو بأس شديد لا يقيم في غير مودة ولا يرضى بجوار من قطع وصله، ويزمع الرحيل على ظهر ناقة سريعة العدو لا يصيبها التعب، ضخمة قوية كثور الوحش النشيط المتنقل باستمرار، وقد أضل قطيع البقر في ليلة ماطرة عاصفة هاجت فيها ريح الشمال، فبات الثور هائماً على وجهه يلوذ في عرض الصحراء بشجر الغرقد الندي المتكسر، وهو يقدم النذور ويرجو انكشاف الشدة وذهاب الغمة وملاقاة إناثه، إذ تكاد الغيرة تقتله عليهن:

وقفتُ بهن حتى قال صحبي:
جَزِعْتُ وليس ذلك بالنُّوالِ(١)

---

(١) النوال: الشأن، الهمة، أي ان جزعك لا يصلح لمثلك.

كـأن دُمُـوعَـه غَـرْبَـا سُـنَـاةٍ
يُـحِيـلُون السّجـالَ عـلى السِّجَـال(١)

تَـمـنَّـى أن تُـلاَقِـي آل سَلمـى
بـخـطـمـة والمنى طُـرُقَ الضَّـلال(٢)

وهـل يـشـتـاقُ مـثـلُكَ مـن دِيـارٍ
دوارِسَ بـيـن تُـخْـتِـمَ والـخِـلال(٣)

وكـنـتُ إذا الـهـمُـوم تـحضـرْتـنِـي
وضَـنَّـتْ خُـلَّةٌ بـعـد الـوِصَـال(٤)

صـرمْتُ حِبَـالـهـا وصـددتُ عـنـهـا
بـنـاجِـيَـةٍ تـجِـلُّ عـن الـكَـلال(٥)

عُـذافِـرَةٌ تـقـمصُ بـالـرُّدافـي
تـخـوَّنَـهـا نُـزُولـي وارتـحـالـي(٦)

---

(١) الغرب: الدلو، السناة: السقاة، السجال: جمع سجل وهو الدلو. يحيل: يصب.

(٢) خطمه: اسم مكان.

(٣) دوارس: قد عفت آثارها. تختم والخلال: موضعان.

(٤) تحضرتني: أتتني، حضرت إلي، خلة: صاحبة.

(٥) صرمت: قطعت. حبالها: أسباب العلاقة بيني وبينها. الناجية: الناقة السريعة. تجل عن الكلال: هي أكبر من أن يصيبها التعب.

(٦) عذافرة: ضخمة قوية. تقمص: تثب. الردافي: خلف الراكب. تخونها: ذهب بلحمها وأهزلها.

كـأخْـنَـسَ نـاشِطٍ جَـادت عـليـه
بِـبُـرْقَـةِ وَاحِفٍ إحـدى الـليـالـي[1]
أضَـلَّ صِـوَارَهُ وتَـضَـيَّـفَـتْـهُ
نـطوفٌ أمـرُهـا بـيـد الـشَّـمَـال[2]
فـبـات كـأنـه قـاضـي نُـذُور
يـلوذ بـغَـرْقَـدٍ خـضِـل وضَـال[3]

ثم يتابع لبيد وصف هذا الثور الوحشي وما ألم به، إذ ظلّ هائماً على وجهه حتى طلع الصباح فاعترضته كلاب الصيد مسترخية الأذنين، وهنا يصف المعركة التي جرت بين الفريقين وكان النصر فيها حليفاً للثور، فمضى تنكشف الغمرات عنه وتشق يده الخمائل:

فـبـاكَـرَه مـع الإشـراقِ غُـضْـفٌ
ضَـواريـهـا تَـخُـبُّ مـع الـرِّجَـال[4]

---

(١) الأخنس: ثور الوحش، الناشط الكثير التنقل. البرقة: الموضع يختلط ترابه بالحصى. واحف: اسم موضع. جادت عليه: أي بالمطر.
(٢) الصوار: قطيع البقر. النطوف: السحابة التي تقطر.
(٣) الغرقد: شجر. خضل: ندي. خضد: متكسر. الضال: نوع من الشجر.
(٤) الإشراق: طلوع الشمس. الغضف: جمع أغضف وهو الكلب المسترخي الأذنين. ضواريها: الكلاب التي ضريت على الصيد. نخب: تعدو.

فجال ولم يَجُلْ جُبْنَاً ولكن
تَعَرُّضَ ذي الحفيظَةِ للقتال[١]
فغادر مُلْحَماً وعدلْن عنه
وقد خَضَب الفرائِص من طِحال[٢]
وولى تَحْسُرُ الغَمرَاتُ عنه
بكما مَرَّ المُرَاهِن ذُو الجِلال[٣]
وولى عامِداً لِطِيات فَلْجٍ
يُرَاوِحُ بين صَوْنٍ وابتذال[٤]
تَشُقُّ خمائلَ الدَّهْنا يداه
كما لعب المُقَامِرُ بالفِيَال[٥]
وأصبح يفتري الحَوْمَان مَزْدَا
كنصلِ السيف حُودِثَ بالصقَال[٦]

---

(١) جال: فرّ. الحفيظة: الغضب.

(٢) عدلن عنه: تركنه. طحال: اسم كلب. الفرائص: جمع فريصة وهي ما حاذى المرفق من الجنب.

(٣) تحسر: تنكشف. الغمرات: أهوال القتال. المراهن: فرس الرهان. ذو الجلال: المجلل صوناً له.

(٤) الطيات: جمع طية وهي الوجهة. فلج: اسم موضع. الصون: الكف من العدْو. ابتذال: استخراج أقصى ما عنده من العدو.

(٥) الدهناء: اسم صحراء. الفيال: لعبة.

(٦) يفتري: يتتبع. الحومان: أرض غليظة. حودث: جلي مرة بعد مرة.

وهكذا يتبين لنا مما ورد تداخل الصور الوصفية فهي جميعاً تصدر عن نفس ملأتها الغيرة وانتابها الخوف والحزن والحذر فلاذت بالخمرة وبالمقامرة، وبتعبير أوضح، لقد عزّ على لبيد أن يرى قومه يتعدى بعضهم على البعض الآخر، فخرج يدعوهم إلى الوئام، وهو يحلم أن يرى قوماً متآزرين أقوياء يرتدع فيهم الظالم عن غيه، ولكن لا بدّ من زلزال يحقق هذا الحلم ويحرك النفوس والمشاعر، وقد وفر لبيد لحلمه هذا الزلزال فأنزل الوحوش من أعالي الجبال واقتلع الأشجار آملاً أن تخصب الأرض وتصفو الحياة وتبرأ النفوس من أمراضها الإنسانية وبذلك يكون لبيد قد اتخذ من القصص الوصفي وسيلة للتعبير عن معاناته الذاتية مع حبيبته وعما يعانيه أبناء قومه أيضاً، فهو يريد الحياة نقية من كل ألوانها الباهتة، صافية جميلة:

أصاحِ ترى بريقاً هَبَّ وَهْناً
كمصباح الشُّعيلَةِ في الذُّبالِ(١)
أَرِقْتُ له وأنجدَ بعد هَدْءٍ
وأصحابي على شُعَبِ الرِّحالِ(٢)

---

(١) هب: لمع. وهناً: بعد ساعة من الليل. الشعيلة: النار. الذبال: الفتيلة.

(٢) أنجد: اتجه ناحية نجد. بعد هدء: بعد ساعة من الليل. شعب الرحال: عيدان الرحال.

فـأفـرغ فـي الـرُّبـابِ يقـودُ بُـلقـاً
مُـجـوَّفَـةً تـذُبُّ عـن السِّـخـال(١)
وأصـبـح راسـيـاً بـرُضـامِ دهـرٍ
وسـال بـه الخمـائِـل في الـرمـال(٢)
وحط وحُـوشَ صَـاحَـةَ مـن ذُراهـا
كـأن وُعُـولَـهـا رُمْـكُ الـجِـمـال(٣)
فـبـات الـسـيـلُ يـركَـبُ جـانِـبـيـه
مـن الـبقّـارِ كـالـعَـمِـدِ الـثُّـفَـال(٤)
أقُـولُ وصـوبُـهُ مـنـي بَـعـيـدٌ
يَـحُط الـشَّـثَّ من قُـلَلْ الـجِـبـال(٥)
سـقـى قـومي بـنـي مَـجْـدٍ وأسـقـى
نُـمـيَـراً والـقـبـائِـلَ مـن هِـلال(٦)

---

(١) أفرغ: أسال ما فيه من ماء. الرباب: أرض. البلق: السحاب. مجوفة: غمر جنوبها وبطونها البياض. تذب عن السخال: تدافع عن أولادها.

(٢) راسياً: ثابتاً. الرضام: الحجارة. لبن: اسم جبل.

(٣) صاحة: اسم جبل. رمك: سود والمفرد أرمك.

(٤) العمد: البعير الذي يشتكي سنامه. الثفال: البطيء الثقيل. البقار: اسم جبل أو واد.

(٥) الشث: نوع من الشجر. القلل: جمع قلة وهي أعلى شيء.

(٦) مجد: من عشيرة لبيد (ابنة تميم بن غالب) وهي أم كلاب وكليب ابني ربيعة بن عامر.

رَعَــوْهُ مَــرْبَــعَــاً وَتَــصَــيَّــفُــوْهُ
بــلا وَبــاً ســمــيٍّ ولا وَبَــال[1]

لقد أفسد الظلم زاد قومه فأمسى خبيثاً تمجه النفوس، فراح يحلم بالبرق والرعد والمطر المخصب ليطهر النفوس ويبارك الأرض. وهكذا لم يكن الجانب الوصفي ورحلة القصيدة في شعر لبيد إلا ارتحالاً من الجدب إلى الخصب ومن الأطلال إلى الأبراج، ومن الخبث إلى الطهر والفضيلة ومن الخصام إلى الحب والوئام.

ويعرض علينا في ديوانه قصيدة طويلة قالها في وصف رحلة الأحباب ومناظر بقر الوحشي والحمر، إذ كان لبيد يحن إلى الطبيعة، فهو دائم التنقل في أرجائها، ينشدها غناءه العذب الصافي، فنحن في معرض الأطلال أمام إحساس عامر بالحياة لا يزول، إنه إحساس الشاعر الذي يرفض فكرة الفناء، فقد درست المنازل في المواطن التي يذكرها لبيد في قصيدته ولكن هذا الدروس سرعان ما ينتهي وتعود الحياة لتدب من جديد في معاقل الصحراء، فالشاعر لا يرضى للحياة في تلك المنازل أن تندثر، فيستعيدها بصورتين ضدّ الفناء، إنهما صورة الكتابة المتجددة وصورة الوشم:

---

(١) مربعاً: ربيعاً. الوبأ: المرض. سمي: سمية على الترخيم.

دَرَسَ المَنَا بِمُتَالِعٍ فأبَانِ
وتقادمَتْ بالحُبْسِ فالسُّوبَانِ[١]
فنعافِ صارةَ فالقنانِ كأنها
زُبُرٌ يُرَجِّعُها وليدُ يمانِ[٢]
مُتَعَوِّدٌ لَحِنٌ يُعِيدُ بكفِّهِ
قلماً على عُسُبٍ ذَبُلْنَ وبَانِ[٣]
أو مُسْلَمٌ عَمِلَتْ له عُلْوِيَّةٌ
رَصَنتْ ظُهُورَ رواجِبٍ وبنَانِ[٤]

أرأيت هذه الأماكن الدارسة كيف تبعثها من جديد كتابة غلام يمني ذكي على سعف النخيل وأشجار العرعر والبان، أو وشم امرأة على قصب الكف وبنانه وكأن آثار الدار زمام في خرزة.

وهكذا تبدو الأطلال تراثاً غالياً على النفوس، ولذلك

---

(١) المنا: منزل. متالع وأبان والحبس: جبال. السوبان: واد لبني تميم. تقادمت: قدمت.

(٢) النعاف: رؤوس الأودية. صارة والقنان: جبلان لبني فقعس. زبر: كتب. يرجعها: يرددها. وليد يمان: غلام يمني.

(٣) متعود: قد تعود ذلك. لحن: فهم فطن. العسب: سعف النخل. الذابل: اليابس وفيه ندوة. البان: نوع من الشجر واحدته بانه.

(٤) مسلم: ساعد أسلمه صاحبه ليدق عليه الوشم. علوية: امرأة. رصنت: وشمت. الرواجب: قصب الكف. البنان: مفاصل الكف العليا.

كانت رغبة لبيد في أن يحصنها من يد الشر والزوال، ويبعث الحياة في ديارها الصامتة، فتظهر أشجار الأودية العظيمة وجماعات النعام وقطعان البقر الوحشي والظباء تروح وتغدو حانية على أولادها إنه الماضي يعود حياً بقيامة جيل جديد، ويورق ويخضر، وإذ ذاك يودع الشاعر الأطلال وينتقل على ظهر ناقة ضخمة كالعير في نشاطها وسرعة عدوها، فيبدو فتى يعشق البكور ويسبق القطا إلى الماء، فتشرب سؤر ناقته، وهذه الناقة كالثور الوحشي أو كسفينة عظيمة، ثم يعرض الشاعر قصة الثور الوحشي وما يعترضه من مصاعب ومشقات في ليلة باردة كاد يموت فيها لو لم يتداركه إشراف النهار، وفي طريقه يلقى كلاب صيد، وتكتب له الغلبة بعد أن دافع باستماتة، وينجلي عنه الخوف وتسكره خمرة الظفر بعد أن رأى الصرعى من الكلاب أمامه كظروف الدنان، ثم يمضي بعد ذلك وقد أشرف وجهه بالنصر، وهو يهتز في عدوه سليماً لم يصبه أذى.

لِلحنظليةِ أصبحت آياتُهَا
يَبْرُقْنَ تحت كَنَهْبُلِ الغُلَّانِ(١)

(١) الحنظلية: امرأة. آياتها: آيات الدار أي علاماتها. يبرقن: يلحن. كنهبل: شجر. الغلان: أودية الشجر والمفرد غال.

خَلَدَتْ ولم يَخْلُدْ بها من حَلُّها
وتبدلَتْ خَيْطاً من الأُحْدَانِ[١]

والخاذِلاتُ مع الجآذِرِ خِلْفَةً
والأُدْمُ حَافِيَةٌ مع الغِزْلانِ[٢]

فصدَدْتُ عن أطلالِهنَّ بجَسْرَةٍ
عَيْرَانَةٍ كالعَقْرِ ذي البُنْيَانِ[٣]

فقَدَرْتُ لِلْوِرْدِ المُغَلِّسِ غُدْوَةً
فوردتُ قبل تبيُّنِ الألوان[٤]

سُدُماً قديماً عَهْدُهُ بأنيسِهِ
من بين أصْفَر ناصعٍ وَدِفَانِ[٥]

---

(١) خلدت: بقيت. الخيط: جماعة النعام. الأحدان: المتفرقة واحداً واحداً من نعام وغيره.

(٢) الخاذلات: الظباء والبقر التي تخلفت لترعى أولادها. الجآذر: أولاد البقر والمفرد جؤذر. خلفة: مختلفة تذهب وتجيء. الأدم: الظباء البيض. حانية: عاطفة على أولادها.

(٣) صددت عنها: تركتها وتحولت عنها. الجسرة: الناقة الضخمة. عيرانه: كالعير في نشاطها. العقر: القصر.

(٤) يروى: فصدرت. قدرت: دنوت. المغلس: الذي دخل في الغلس قبل الصبح. تبين الألوان: وضوحها.

(٥) السدم: الماء القديم الذي لم يستق منه. ناصع: خالص. دفان: مندفن.

فَـهَـرقْـتُ أَذْنِـبَـةً عـلى مُـتَـثَـلِّمٍ
خَـلِقٍ بِـمُـغْـتَـدِلٍ مـن الأصْـفَـانِ[1]
فـتَـغـمَّـرتْ نَـفـسـاً وأدْركَ شَـأْوُهَـا
عُـصَـبَ الـقَـطا يَـهْـوِيـنَ لـلأذْقـانِ[2]
كـسَـفـيـنَـةِ الـهـنـديِّ طـابـقَ دَرْءَهَـا
بـسَـقـائـفٍ مِـشْـبُـوحَـةٍ وَدِهَـانِ[3]
فـكـأنـهـا هـي يـوم غِـبُّ كَـلاَلِـهَـا
أو أسْـفَـعُ الـخـديْـنِ شـاةُ إرَانِ[4]
حَـرِجٌ إلـى أرْطَـاتِـه وتـغـيـبَـتْ
عـنـه كـواكـبُ لـيـلةٍ مِـدْجَـانِ[5]

---

(١) هرقت: صببت. أذنبة: دلاء. متثلم: حوض مثلم الحوافي. خلق: دارس. الأصفان: السفر مفردها سفرة.

(٢) تغمرت: شربت قليلاً. نفساً: شربة واحدة. شأوها: سيرها. سؤرها: ما فضل منها. يهوين: يقعن من التعب.

(٣) شبه الشاعر الناقة بالسفينة في طولها وعظمها. طابق: أحكم عملها. الدرء: العيب. السقائف: الخشب المشقوقة. مشبوحة: عريضة أو مشقوقة. دهان: دهن.

(٤) كلالها: إعياؤها. الاسفع: ما فيه سواد ضارب إلى الحمرة. الشاة: الثور. الإران: النشاط.

(٥) حرج: مضطر إليها. الأرطأة: شجرة. ليلة مدجان: ملبسة بالغيم أو دائمة المطر.

فــتــدارك الإشــراقُ بــاقــيَ نَــفْــسِــهِ
مُــتَـجَـرِّدَاً كــالــمــائــح الــعُــرْيَــانِ[1]
لــو كــان يَــزْجُــرُهَــا لقــد سنحت لــه
طَيْــرُ الشِّــيــاحِ بــغَــمْــرَةٍ وَطِــعَــانِ[2]
فــعَــدَا عــلى حَــذَرٍ مُــوَرَّثُ عُــدَّةٍ
يــهــتــزُّ فــوق جــبــيــنِــهِ رُمْــحَــانِ[3]
حــتــى أُشِــبَّ لــه ضِــرَاءُ مُــكَــلِّبٍ
يــســعــى بــهــن أَقَــبُّ كــالــسِّــرْحَــانِ[4]
فــحــمــى مَــقَــاتِــلَهُ وذادَ بَــرَوْقِــهِ
حَمْيَ المحــارِبِ عَــوْرَةَ الصُّحْــبَــانِ[5]
حتــى انــجلتْ عنــهُ عَــمَــايَــةُ نَفْــرِهِ
فكــأن صــرعــاهــا ظُــرُوفُ دِنَــانِ[6]

---

(١) المعنى: لو طالت عليه الشدة الليلة لمات. المائح: الذي يستقي الماء من البئر.

(٢) يزجرها: يزجر الطير. طير الشياح: القتال. الغمرة: الكرب والشدة.

(٣) عدا: جرى على حذر. العدة: قرنا الثور.

(٤) أشب له: رفع له وأتيح له. ضراء: كلاب. الأقب الضامر يعني الصائد. السرحان: الذئب.

(٥) مقاتله: مراق بطنه وخصره. ذاد: دافع. الروق: القرن. العورة: الثغرة المنكشفة.

(٦) انجلت: انكشفت. عماية نفره: ما ألبسه من الفزع. ظروف دنان: أوعية.

فــاجتــازَ مُنْقَــطَع الـكـثيـبِ كـأنــه
نِضْــعُ جَلَتْــهُ الشمسُ بـعــد صِــوانِ[1]
يَـمْـتَــلُ مــوفــوراً ويـمشــي جــانِبَــاً
رَبِــذاً يُـسَــلَّى حــاجَــةَ الـخَـشْـيَــانِ[2]

تلك صورة من صراع المخلوقات ضدّ نكبات الدهر وشدائده، فالحياة لا تصفو وتنتعش وتتقدم إلاّ بالكفاح في سبيل البقاء والوجود والحرية، وينتقل الشاعر في نهاية قصيدته إلى قصة الصعل أو ذلك الظليم الذي يبدو كلفاً بأنثاه، يرعى وإياها أرضاً طيبة النبت، حتى إذا دبّ الظلام ذكرا بيضهما فأسرعا إليه، إنه رمز الحياة القادمة الجديدة، رمز التجدد والانبعاث، تلك قصة الحياة، ومسيرة المخلوقات فيها:

أفــذاكَ أم صَــعْــلٌ كــأن عِــفَــاءَهُ
أوزاع أَلْــقــاءٍ عــلى أغْــصَــانِ[3]

(١) النصع: ثوب خالص البياض. الصوان: التي تصان فيها الثياب.
(٢) يمتل: يعدو أو يهتز في عدوه. موفوراً: سليماً معافى. ربذاً: سريعاً. يسلى: يطرح أو يسهل.
(٣) الصعل: الظليم والصعل: الدقيق العنق والصغير الرأس. العفاء: الريش. أوزاع: قطع ألقاء: ما ألقي.

يُلْقِي سَقِيطَ عِفَائِه مُتَقَاصِرا
لِلشدِّ عَاقِد مَنْكِبٍ وَجِرَانِ[1]
صَعْلٌ كَسَافِلَةِ القَنَاةِ وَظِيفُهُ
وكأن جُؤْجُؤهُ صَفِيحُ كِرَانِ[2]

فهو هنا يتساءل عما إذا كان الثور ـ الذي تحدث عنه ـ يشبه ناقته أم يشبهها ظليم دقيق العنق صغير الرأس، طويل الساقين كأن صدره صدر عود.

ثم يتابع حديثه عن الظليم وأنثاه وعن الجو الهادىء الذي غشيهما، فبدت حياتهما آمنة مستقرة يخيم عليها الحب والوفاق، ويرسم الشاعر هنا صورة رائعة وإنسانية لحياة تعمر بالمودة، وتتجدد باستمرار، فيجعل بطلا قصته زوجين متحابين، ثم يشير إلى البيض، إنه البذور التي ستنمو وتبني الحياة من جديد، فيعقم الشاعر بذلك الحياة ضدّ مخاوف الفناء ويزودها بمعين لا ينضب، فحياة المخلوقات لا تتوقف، تتوارث الأجيال وتتعاقب إنها سنة المخلوقات.

---

(١) يروى: مقتصراً. والسقيط: ما سقط من ريشه. متقاصراً: مجتمعاً. عاقد منكب: تقبض فعقد منكبه. الجران: باطن الحلق.
(٢) الوظيف: عظم الساق يعني أنه طويل الساقين. الجؤجوء: الصدر. الكران: البربط وهو آلة موسيقية. الصفيح: الخشب المشقوق.

كَـلِفٌ بِعـارِيـةِ الـوَظِـيـفِ شِـمِـلَّةٍ
يمشي خِـلال الشَّـرْيِ في خِيـطانِ[1]
ظـلت تَتَـبَّـعُ مـن نِـهـاءِ صَـعَـائِـدٍ
بَيْـنَ الـسَّـليـلِ ومَـدْفَـعِ الـسُّـلَّانِ[2]
سَبَـداً من الـتَّـنـوُّمِ يـخْـبِـطُهُ الـنـدى
ونَـوادِراً مـن حنـظَـلِ الـخُـطْبَـانِ[3]
حـتـى إذا أَفِـدَ الـعـشـيُّ تَـرَوَّحَـا
لِـمَـبِـيـتِ رِبْـعِـيِّ الـنِّـتَـاجِ هـجَـانِ[4]
طـالَـتْ إقـامَـتُـهُ وغَـيَّـرَ عَـهْـدَهُ
رِهَـمُ الـربـيـع بِـبُـرْقَـةِ الـكَـبَـوَانِ[5]

---

(١) يروى: تمشي. عارية الوظيف: أنثى الظليم. شملة: سريعة. الشري: شجر الحنظل. خيطان: فرق النعام.

(٢) نهاء: جمع نهي وهو موضع مطمئن له ينتهي عنده السيل ويحفظ الماء. صعائد: موضع. السليل: واد. مدفع: مجرى.

(٣) سبداً: نابتاً. التنوم: شجر. يخبطه الندى: يصيبه. النوادر: ما ندر فسقط. الخطبان: صفرة الحنظل وخضرة فيه. والنوادي: أو ما يظهر منه.

(٤) أفد: قدم وعجل عليهما. تروحا: أي الظليم والنعامه بكرا عليه. هجان: أبيض. مبيت ربعي النتاج: أي بيضهما الذي باضاه في أول الربيع.

(٥) الرهم: الأمطار الضعيفة. البرقة: رملة يخالطها حصباء. الكبوان: واد.

وهكذا يتصدى الشاعر في هذه القصيدة لمشكلة أساسية كانت تهم الإنسان الجاهلي وتقلقه، إنها مشكلة الفناء، فينهض بمهمة الفنان خير قيام، إذ يبعث الحياة ويخصبها، ويلقي على عاتق المكافحين والمناضلين مسؤولية استمرارها وتطورها.

٤ ـ الفخر:

كان الفخر ضرورة لا غنى عنها عند الجاهلي، فقد حفل به الشعراء الجاهليون كافة وولعوا به لأهميته الكبرى في حياتهم اليومية، فالنظام القبلي وحياة الحروب والغزوات والفروسية فرضت فنوناً معينة من الشعر وكان الفخر في مقدمتها، فالقبيلة كانت بحاجة لمن يعلي شأنها ويبين شمائلها وقيمتها، ويهجو أعداءها، ولم يكن ليستطيع أن يقوم بهذا الدور غير الشاعر، لذلك لا يستغرب إذا قلنا أنه لم يخل ديوان جاهلي من قصائد الفخر والحماسة، وكانت تلقى هذه القصائد أمام الناس، ويبقى التفاخر سجالاً لسنوات في بعض الأحيان، وكانت سوق عكاظ في الجاهلية من أكبر المواسم الشعرية التي عرفتها شبه جزيرة العرب، يلتحم فيها الشعراء في معركة شعرية ينقسم فيها الناس بين هذا وذاك.

ولبيد أحد هؤلاء الشعراء المقدمين في هذا الفن، وقد عرضنا في صفحات سابقة شهادات كثيرة فيه، تنعته بالكرم والجود والإباء والفروسية والشجاعة.

فقد كان فخوراً في الجاهلية، ملحاً في الفخر يكاد يتورط في الغلو والإسراف، على حدّ قول الدكتور طه حسين، فقد

كان يفخر بنفسه مقبلاً على اللهو شارباً خمرة الصباح والمساء، محتملاً كل الصعاب والشدائد، معتزاً بكرمه وفروسيته وشجاعته، ولم يكن لينسى عشيرته، فهو يفتخر بها كثيراً، ويدافع عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يبيت على ضيم يُلحق بها، ولعل الفخر يكاد يأخذ نصيباً في كل قصيدة قالها الشاعر، بل كاد أن يكون صناعة لبيد طوال حياته الجاهلية. وقد قسمته إلى مرحلتين، الفخر في الجاهلية والفخر في الإسلام.

الفخر في الجاهلية: ـ نشأت في نفس لبيد منذ شبّ ميول حميدة، تغنى بها على امتداد حياته الطويلة، وعرف الناس له هذه الخصال فاحترموه وأجلوه، حتى الولاة منهم، ألم يأخذ على نفسه عهداً في الجاهلية أن يطعم الناس كافة كلما هبت صبا، وقد وفى بنذره في الجاهلية وفي الإسلام، وقد أشار إلى ذلك الوليد بن عقبة والي الكوفة في أبيات أرسلها إليه:

أرى الجزارَ يشحذُ شفرتيهِ
إذا هبتْ رياحُ أبي عقيلِ
أشمُّ الأنفِ أصيدَ عامرياً
طويلَ الباعِ كالسيفِ الصقيلِ
وفي ابنُ الجعفري بحلفَتَيه
على العلاتِ والمال القليل

ولبيد يفخر بذلك ويعتز.

وجــزورِ أيــســارٍ دعــوتُ لـحـتـفــهـا
بــمـغــالـقٍ مـتـشــابــه أجـســامُــهــا
أدعـــو بـــهـــن لــعـــاقِـــر أو مُــطْـفـلٍ
بــذلــتْ لجـيــرانِ الجـمـيــع لحــامُهــا
فــالـضـيـفُ والجــارُ الجـنـيـبُ كــأنـمــا
هــبــطـا تـبــالــةَ مُـخـصـبــاً أهـضــامـهــا
تــأوي إلــى الأطــنــابِ كــلُّ رزيــةٍ
مــثــلِ الــبــلـيــةِ قــالـصٌ أهــدامــهــا
ويــكــللونَ إذا الــريــاحُ تــنــاوحــت
خُـــلـجُـــاً تـمـــدُّ شـــوارعـــاً أيـــتــامُــهــا

فهو هنا على عادته يقامر على نحر الإبل، بغية إطعام الجائعين الملتجئين إليه، لا ينتظر بذلك ربحاً وكسباً، والآتون إليه فيهم الضيف وفيهم الجار، وفيهم العاقر، وفيهم المطفل كثيرة الأولاد وفيهم البائسات اللواتي يلزمن أطناب الخيمة كأنهن النوق التي تشد إلى قبور الموتى، لا تبرحه حتى تموت عليه، وكل هؤلاء ينعمون عنده بالخيرات والرغد والاطمئنان، تقدم لهم الجفان وقد ملئت بالثريد، وكأنهم نزلوا منطقة تبالة وقد نبتت فيها الخيرات والأرزاق.

ويتحدث في قصيدة أخرى عن الموضوع الآنف الذكر مفتخراً معتزاً بكرمه يومِ آوى مستغيثاً لم ينجده أحد:

ومُـدفَّـع طَـرَقَ الـنُّبـوُحَ فـلم يـجِـدْ
مـأوىً ولـم يـكُ للمضـيفِ سَـوَامُ[١]

آويـتُـهُ حـتـى تـكَـفَّـتَ حَـامِـداً
وأهـلَّ بـعـدَ جُـمـاديـيـن حَـرامُ[٢]

وصَـبـاً غَـداةَ إقـامَـةٍ وزَّعْـتُـهـا
بـجِـفَـانِ شِـيـزَى فـوقـهـن سَـنـامُ[٣]

ثم يتابع الشاعر مفتخراً بشجاعته وجرأته في مواقف الشدة والبأس، ومواجهته الحاسمة لذوي القدرة والبطش وتغلبه عليهم في مجالات الفخر والاعتزاز، حتى كان سيد الموقف والكلمة في مجلس عامر، وغايته من كل ذلك العلى والأمجاد:

---

(١) المدفع: الذي يدفعه كل أحد. والنبوح: الحي. السوام: الماشية.
(٢) تكفت: رجع وانقلب إلى أهله. جمادي الأولى والأخرة: شهرا البرد والربح. حرام: شهر رجب وكانوا يعظمونه ولا يستحلون القتال فيه.
(٣) صبا: ريح الصبا، وكان لبيد قد نذر ألا تهب الصبا إلا اطعم. شيزى: خشب أسود تتخذ منه الجفان.

وَمَقَامَةٍ غُلْبِ الرقابِ كأنهم
جِنٌّ لدى طرفِ الحصيرِ قيامُ[1]
دافعتُ خُطتَها وكنتُ وَلِيَّها
إذ عَيَّ فَصْلَ جوابها الحكام[2]
ضارستُهُم حتى يلين شريسُهُم
عني وعندي للجَمُوحِ لِجامُ[3]
وبِكُل ذلك قد سعيتُ إلى العلى
والمرءُ يُحمَدُ سَعْيُه ويُلامُ

وها هو لبيد يقف موقف المفاخرة بين يدي الملك النعمان، ويتحدث عن مكارمه ونجدته وإقدامه، عندما أطعم رفاقه شواءً طرياً لم يصبه دخان ثم غدا عليهم بزق ثمين أسود اللون كأن جلده ظهر حبشي:

وفِتيانِ صِدْقٍ قد غَدوْتُ عليهم
بلا دَخَنٍ ولا رَجيعٍ مُجَنَّبِ[4]

(١) يروى: وقماقم غلب الرقاب. مقامة: أهل مجلس. غلب الرقاب: غلاظ الأعناق كالأسود. الحصير: الملك. القماقم: العدد الكثير

(٢) يروى: إذ عي فصل خطابها. دافعت خطتها: رددت عليهم مفاخرهم. كنت وليها: صاحب الفوز فيها.

(٣) ضارستهم: جربتهم وعرفتهم. الشريس: الشرس أي العسر الخلق.

(٤) الدخن: الشواء الذي أصابه الدخان فهو متغير الطعم. الرجيع: بقية الشراب. المجنب: المنحى جانباً.

بِمُجْتَزَفٍ جَوْنٍ كَأَنَّ خَفَاءَهُ
قَرَا حَبَشِيٍّ في السَّرَوْمَطِ مُحْقَبِ[1]

ثم يتحدث عن شجاعته وجرأته في مساعدة التائهين المأسورين، فكم من أسير فك قيده، وأخذ بيده في ظلمة الليل مهتدياً بضياء النجوم كي يوصله إلى مقره الأمين، وهو في المعارك صنديدها، يجيب دعوة الأبطال للنزال، وطعنته قاتلة، يرتفع لوقعها النواح:

وعانٍ فككتُ الكبلَ عنه، وسُدفةٍ
سريتُ وأصحابي هَدَيتُ بكوكب[2]
سريتُ بهم حتى تغيَّبَ نجمُهُم
وقال النَّعُوسُ: نَوَّرَ الصبحُ فاذهبِ[3]
ودَعوَةِ مرهُوبٍ أجبتُ وطعنَةٍ
رفَعْتُ بها أصواتَ نَوحٍ مُسَلِّبِ[4]

ولبيد يحس بآلام الآخرين، ومعاناتهم، لذلك يسارع

---

(١) المجتزف: الزق. جون: أسود. الخفاء: الجلد. قرا: ظهر. السرومط: قطعة حبل وقيل وعاء للزق يوضع فيه. محقب: مشدود خلف الدابة.
(٢) يروى: فككت الغل عنه. العاني: الأسير. الكبل: القيد. السدفة: ظلمة الليل.
(٣) يروى: حتى تغور. سريت: سرت في الليل.
(٤) مرهوب: رجل مخوف الجانب. مسلب: لبس السواد حداداً.

لنجدتهم في أيام الشدة، فيقامر بالميسر كي يبعد عنهم البرد والجوع في آن معاً، في يوم قارس عاصف تقطعت منه أوتاد الخيم وحبالها، ولزمت النياق أماكنها، ويذبح لهم الإبل ويوزع لحومها عليهم فينالون الدفء والطمأنينة، فالشاعر لم يتخذ المقامرة للمقامرة، وإنما كانت ذات هدف اجتماعي إنساني:

ويوم هوادِي أمْرِهِ لِشمالِه
يُهَتِّكُ أخطالَ الطِّرافِ المُطَنَّبِ(١)
يُنيخُ المخاضَ البُرْكَ والشمسُ حَيَّةٌ
إذا ذُكِّيَتْ نيرانُها لم تَلَهَّبِ(٢)
ذعرتُ قِلاصَ الثلجِ تحت ظِلالِه
بمثنى الأيادي والمنيحِ المُعَقَّبِ(٣)

وفي تعداد المفاخر يعجز خصومه عن اللحاق به، فهو سيد المجالس ويشهد على ذلك باب النعمان بن المنذر،

---

(١) هوادي الأمر: أوائله. الشمال: الريح الشمالية. يهتك: يقطع. أخطال: حبال. الطراف: البيت من أدم. المطنب: المشدود الحبال.

(٢) ينيخ المخاض: ينيخ الحوامل من النياق فتبرك لشدة البرد. الشمس حية: بيضاء لم تغب. ذكيت: أوقدت.

(٣) ذعر قلاص الثلج: أي دفع البرد عن الناس بإطعامهم. وقلاص الثلج: السحاب وقيل الإبل الفتية. مثنى الأيادي: ما فضل من لحم الجزور. المنيح المعقب: القدح المشدود بالوتر.

فأمامه تصغر كل مفخرة، وإذا خط أحدهم في الرمل خطاً ليدل على مفخرته، خط هو خطوطاً، ولذلك لم يحفل بتمدح مبغضيه، لأنه أعلى منهم كعباً ومنزلة، فانهزموا أمامه في مجلس المفاخرة هزيمة منكرة، وفروا لا يلوون على شيء متفرقين تضطرب قسيهم كأنها قرون بقر تضرب برؤوسها من شدة الإعياء.

وفي ختام القصيدة يفتخر الشاعر بأنه لكل صغيرة وكبيرة، وينذر خصومه بأنه لهم بالمرصاد، وأنه مصمم على مواجهتهم بالطريقة التي يريدون:

وخصمٍ قيامٍ بالعراءِ كأنهم
قُرُومٌ غيارَى كُلَّ أزهرَ مُصْعَبِ[1]
نَشِينُ صِحاحَ البِيدِ كلَّ عَشِيَّةٍ
بِعُوجِ السراء عند باب مُحَجَّبِ[2]
شهدتُ فلم تنجعْ كَوَاذِبُ قولهم
لَديَّ ولم أحفِلْ ثنا كلِّ مِشْغَبِ[3]

---

(١) القروم: الفحول. أزهر: أبيض. مصعب: ممتنع لم يذلل.

(٢) صحاح البيد: الصحاري المستوية الملساء. نشينها: نخطها بالسهام تعدداً لمفاخرنا. السراء: شجر ضخم تتخذ منه القسي العربية. المحجب: الملك.

(٣) ثنا كل: مشغب: تمدح كل مشغب. والمشغب هو الصبور على الشغب.

أصـــدرتُـــهُـم شـــتى كـــأن قِـــسِيَّـــهمْ
قُـــرُونُ صِـــوَارٍ سَـــاقِطٍ مُـــتَـــلغِّـــبِ[1]

فـــإن يُسْهِلوا فـــالسهـــل حـظي وطُـــرْقتي
وإن يُحـزِنـوا أركب بهم كـــل مـركَبِ[2]

ولبيد لا يرى فرقاً بين فخره بنفسه وبين فخره بعشيرته وبني قومه، إنهما متلازمان، التحما في إطار واحد لم ينفصم أبداً. فقد دافع لبيد عن قومه بكل تفان وإخلاص، وناضل في سبيلهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولعل هذا النضال بدأ في مستهل حياته الشعرية، عندما صحب قومه وهو غر في سفارة لهم عند النعمان بن المنذر، وكانوا يرون منه تلطفاً وإقبالاً، إلا أنهم أحسوا هذه المرة بالصدود والإعراض، وعلموا أن الربيع بن زياد خال لبيد هو مصدر وسبب هذا الإعراض، وإذ ذاك أخذ لبيد على عاتقه مهمة تسوية الأمر ومواجهته، عندما أصرّ على زعماء قومه أن يصطحبوه معهم إلى مجلس الملك، فوافقوا، ولما أذن لهم دخلوا، فوجدوا

(١) أصدرتهم: رددتهم. الصوار: قطيع البقر. المتلغب: الضعيف من الإعياء.

(٢) يسهلون: يذهبون في السهل أي يتسامحون. طرقتي: مذهبي وطريقتي. يحزنون: يركبون الأرض الوعرة.

الملك على طعامه ومعه الربيع بن زياد الذي أخذ ينتقص منهم ويصرف الملك عنهم فوثب لبيد مرتجزاً:

لا تزجر الفتيانَ عن سُوءِ الرُّعَه[١]
يا رُبَّ هيجا هي خَيرٌ من دَعَه[٢]
يا بن الملُوكِ السادَةِ الهَبْنَقَعه[٣]
أنا لبيدٌ ثمَّ هذي المَنْزَعه[٤]
في كل يومٍ هامَتِي مُقَزَّعه[٥]
قانِعةٍ ولم تكن مُقَنَّعَه[٦]
نحنُ بَنُو أمِّ البَنِينَ الأربعه
ونحن خيرُ عامرِ بن صعصعه
المطعمون الجفنةَ المُدعْدَعه[٧]
والضاربون الهامَ تحت الخَيْضَعه[٨]

---

(١) الرعه: الحمق.
(٢) الهيجا: الحرب. الدعة: الراحة وخفض العيش.
(٣) الهبنقعة: أهل الزهو والكبرياء.
(٤) المنزعه: القوس.
(٥) مقزعة: متساقط شعرها. كناية عن أنه يقاتِل ويقاتَل كل يوم.
(٦) مقنعة: مغطاة بقناع.
(٧) الجفنة: القصعة الكبيرة. المدعدعة: المملوءة.
(٨) الهام: الرؤوس. الخيضعة: اختلاط الأصوات والغبار والبيضة التي تلبس على الرؤوس.

ولما سمع النعمان آخر الرجز (وهو ليس في هذه الأبيات) تألم وتوقف عن الطعام وأمر باكرام بني جعفر وقضاء حوائجهم، وما في القصيدة يدل على شجاعة منقطعة النظير حفلت بها نفس الشاعر الأدبية، فهو هنا يخاطب النعمان بن المنذر مفتخراً بفروسيته، إذ أنه دوماً في ساحة القتال مكشوفاً دون قناع، وهذا منتهى الشجاعة، ثم ينتقل إلى الحديث عن بني قومه، الكرام الأبطال، والأجواد الشجعان، المطعمين القصاع الكبيرة، والمفلقين الهامات.

وفي قصيدة أخرى يفتخر لبيد بقومه وبعشيرته ويتحدى خصميه عقبة بن عتبة ومالك بن جعفر، وهو يدحض مزاعمها ويفتخر بأعمامه وأخواله وجدوده ذوي العزم والحزم والجود، فخاله مالك بن جعفر ولي قرى الريف وأعطاه ملك اليمن فوق ما تعطى الوفود لعلو كعبه وشأنه، وأبوه ربيع اليتامى والمقترين كما كان يعرفه كل الناس، ثم يجملهم في بيت واحد، إنهم لا يبارون وليس لهم مثيل:

ولستُ كما يقول أبو حُفَيْدٍ
ولا نَدْمانُه الرِّخْوُ البليد(١)

---

(١) أبو حفيد: عقبة بن عتبة. الندمان: النديم أي الرفيق على الشراب. الرخو: الضعيف.

فعميَّ ابنُ الحَيا وأبو شُرَيْح
وعمي خالدٌ حزمٌ وجوُد[١]

وجدي فارسُ الرعشاءِ منهم
رئيسٌ لا أسَرٌّ ولا سَنيد[٢]

وشارَف في قُرى الأرياف خالي
وأُعْطِيَ فوق ما يُعْطى الوفُود[٣]

وجدتُ أبي ربيعاً لليتامى
وللأضيافِ إذ حُبَّ الفَئيدُ[٤]

وخالي خِذْيَمٌ وأبو زهير
وزنْباعٌ ومولاهم أسِيدُ[٥]

أولئك أسرتي فاجمع إليهم
فما في شُعْبتيك لهم نَدِيدُ[٦]

---

(١) ابن الحيا: عتبة بن جعفر. والحيا: أمه. أبو شريح: الأحوص بن جعفر.

(٢) الرعشاء: فرس. الأسر: عيب يصيب كركره البعير. السنيد: المدخل في القدم وليس منهم.

(٣) شارف: ولي المشارف. الأرياف: العراق وما يليه من بلاد العجم.

(٤) الفئيد: خبز الملة، أو الشواء وقيل النار يحييها الناس في الشتاء دفعاً للبرد.

(٥) هؤلاء الذين عدهم في البيت من بني عبس.

(٦) الشعبتان: القبيلتان، نديد: مثل. والزنمتان: الدعوتان.

وفي قصيدة لامية يصدح لبيد على أفنانه طويلاً، متحدثاً عن مآثره الجمة وخصاله الحميدة وأفضاله التي لا تنكر:

فلقد أُعْوِصُ بِالخصم وقد
أملأُ الجفْنَةَ من شَحْمِ القُلَلْ[1]

ولقد تَحْمَدُ لما فارَقت
جارتي والحمدُ من خيرِ خَوَلْ[2]

وغُلامٍ أرْسَلَتْهُ أُمُّهُ
بألوكٍ فبذلنا ما سأل[3]

أو نَهَتْهُ فأتاه رِزْقُهُ
فاشْتَوَى ليلة ريحٍ واجتَمَلْ[4]

من شِواءٍ ليس من عارِضَةٍ
بيَدَيْ كل هَضُومٍ ذي نَزَلْ[5]

---

(١) أعوص به: أركب به الأمر العويص. الجفنة: القصعة. القلل: الأسمنة.

(٢) الخول: العطية.

(٣) الألوك: الرسالة.

(٤) اجتمل: انتفع بالشحم.

(٥) العارضة: الناقة التي أصابها كسر أو عرض فنحرت. الهضوم: الفتى الذي يهتضم ماله ويبتذله في صنوف المعروف. النزل: المعروف والخير.

فلبيد يعجز خصمه، وهو رجل الكرم والجود، قصاعه دائماً ملأى، وجارته تحمد ذكره لسخائه، وهو لا يرد سائلاً أبداً، حتى إذا نهت الأم غلامها عن الطلب حياءً، بعث هو إليها بما اشتواه وهذا منتهى الكرم وغاية الجود.

ثم يستأنف الشاعر متحدثاً عن شجاعته وفروسيته ونجدته:

ولَقَدْ يَعْلَمُ كُلُّهُمْ
بِعَدانِ السَّيفِ صَبْرِي ونَقَلْ[١]

رابِطُ الجأشِ على فَرْجِهِمُ
أعْطِفُ الجَوْنَ بِمَرْبُوعٍ مِتَلّ[٢]

ولقد أغدُو وما يَعْدَمُني
صَاحِبٌ غيرُ طَوِيلِ المُحْتَبَلْ[٣]

(١) عدان بفتح العين ضفة النهر وبالكسر: موضع على سيف البحر. النقل: مراجعة الكلام في صخب.

(٢) رابط الجأش: ثابت القلب. الفرج: موضع المخافة. الجون: فرسه. المربوع: الرمح ليس بالطويل ولا بالقصير. المتل: الشديد.

(٣) الصاحب هنا الفرس. المحتبل: موضع الحبل من رسغه والمحمود في الخيل قصر الرسغ.

ساهِمُ الوجْهِ شديدٌ أَسْرُهُ
مُغْبَطُ الحَارِكِ مَحبوكُ الكَفَلْ[1]
بأجَشِّ الصوت يَعْبُوبٍ إذا
طَرَقَ الحيَّ من الغزوِ صَهَلْ[2]
فهو شَحاجٌ مُدِلٌّ سَنِقٌ
لاحِقُ البَطنِ إذا يعدو زَمَلْ[3]
فتدليتُ عليهِ قافِلاً
وعلى الأرض غَيَابَاتُ الطَّفَلْ[4]
وتَأيَّبْتُ عليه ثانِيَاً
يَتَّقِينِي بِتَليلٍ ذي خُصَلْ[5]

فصحبة كلهم يعرفون مدى شجاعته، فهو فارس رابط الجأش لا يخاف الصعاب، وهنا ينتقل إلى وصف الفرس

---

(١) ساهم الوجه: محمول على كريهة الجري. شديد الأسر: موثق الخلق. مغبط الحارك: حاركه كالغبيط والحارك الكاهل. والغبيط: قتب الهودج. محبوك الكفل: مدمج فيه استواء مع ارتفاع.

(٢) اليعبوب: الفرس الطويل السريع.

(٣) شحاج: كثير التصويت. مدل: جريء. سنق: يشم لكثرة ما أكل. لاحق البطن: ضامر. زمل: اعتمد في عدوه على أحد شقيه رافعاً جنبه الآخر.

(٤) الغيابة: الظل. الطفل: حين تهم الشمس بعد الغروب.

(٥) التليل: العنق.

التي يمتطيها في المعارك، إنها طويلة سريعة كثيرة الجري، جريئة ضامرة، وينتقل الشاعر من هذا الوصف إلى الحديث عن بطولته المشهودة، فقد كان إلى جواره حامية من آل جعفر تختبر أغماد السيوف، أفرادها كلُيُوثٍ أشداء هزموا خصومهم في المعارك ونكلوا بهم وقتلوا أشرافهم:

وَمَعِي حَامِيَةٌ مِنْ جَعْفَرٍ
كُلَّ يَوْمٍ تَبْتَلِي مَا فِي الخِلَلْ[1]
وَقَبِيلٌ مِنْ عُقَيْلٍ صَادِقٌ
كَلُيُوثٍ بَيْنَ غَابٍ وَعَصَلْ[2]
فَصَلَقْنَا مُرَادٍ صَلْقَةً
وَصُدَاءٍ أَلْحَقَتْهُمْ بِالثَّلَلْ[3]
لَيْلَةَ الْعُرْقُوبِ لَمَّا غَامَرَتْ
جَعْفَرٌ تُدْعَى وَرَهْطُ ابنِ شَكَلْ[4]

ثم لا يلبث أن يتحدث من جديد عن نفسه، فهو سيد قومه والمدافع عنهم والمنافح عن قضاياهم ووجودهم، فكم من

---

(١) تبتلي: تختبر. الخلل: أغماد السيوف.

(٢) العصل: جمع عصلة وهي تشبه الدفلى. الغاب: أجمة القصب.

(٣) صلقنا: صحنا. الثلل: الهلاك.

(٤) غامرت: دخلت غمرة القتال.

أزمة أنقذ منها قبيلته، ويشهد بلاط النعمان بن المنذر على طول باعه ولسانه الذرب وحجته القاطعة ودفاعه عن بني قومه عامر عندما دعوه لنصرتهم، إذ هبّ كالليث الهصور يرد كيد الخصوم وينتصر عليهم:

ومقامٍ ضَيِّقٍ مَزَّجْتُهُ
بِمَقامِي ولِساني وجَدَلْ

ولدى النعمان مني مَوْطِنٌ
بين فاثور أُفاقٍ فالدَّحَل[1]

إذ دعتْنِي عامِرٌ أنصُرُهَا
فالتقى الألسُنُ كالنَّبْلِ الدُّوَل[2]

فرميتُ القومَ رِشْقاً صَائِبَاً
ليس بالعُصْلِ ولا بالمُقْتَعَلْ[3]

رَقَمِيَّاتٍ عليها نَاهِضٌ
تُكْلِحُ الأرْوَاقَ مِنْهُمْ والأَيَلْ[4]

---

(١) فاثور وأفاق والدحل: مواضع.

(٢) الدول: المتداولة.

(٣) الرشق: سهام كثيرة دفعة واحدة. العصل: المعوجة. المقتعل: الذي لم يبر برياً جيداً.

(٤) رقميات: نبل منسوبة إلى الرقم وهو موضع دون المدينة. ناهض: ريش فرخ نسر. الأروق: الطويل الأسنان. الأيل: الذي لزقت أسنانه باللثة.

فـانـتَـضَـلْنَـا وابْنُ سـلمـى قَـاعِـدٌ
كعَتِيقِ الـطيـرِ يُغـضي ويُجَـلْ[1]

ويعتز لبيد في قصيدة أخرى بقومه بني عامر، فهم أشراف من خير الأقوام، أسخياء، لهم مجلس عامر يوسعون فيه على الناس، وقدور وجفان تشهد على علو باعهم في الجود والكرم، وسخاؤهم يفيض خاصة عندما يشتد البرد، وتمتلىء أجواء نجد بقطع السحاب فيطوفون على الناس بالطعام ليمنعوا عنهم الجوع، ومعظم قبائل العرب تعرف فضل هؤلاء، وبلاءهم، ونعمهم:

بـنـو عَـامِـرٍ من خيـرِ حَيٍ عَلِمْتُهُم
ولـو نـطق الأعـداء زُوراً وبَـاطِـلاً
لهم مَجْلِسٌ لا يـحصـرُون عـن النـدى
ولا يَـزْدَهِيهم جَهْـلُ من كان جـاهلا[2]
وَبِيضٌ على الـنيـرانِ في كـل شَتـوَةٍ
سَـرَاةَ العِشَـاءِ يَـزْجُـرونَ المَسَـابِـلا[3]

(١) انتضلنا: تبارينا. ابن سلمى. عتيق الطير: البازي. يجل: أصله يجلي أي ينظر.

(٢) يحصرون: تضيق صدورهم به. يزدهيهم: يستخفهم.

(٣) بيض: رجال يوقدون ويطعمون. أو كناية عن نقاء أجسامهم. سراة العشاء: وقت طروق الضيف. المسابل: جمع مسبل وهو قدح له ستة أنصباء.

وأعـطَوْا حقُـوقـاً ضُمَّنُـوُهَـا وِرَاثَـةً
عِـظَامَ الجِفَـانِ والصِّيَـام الحَـوَافِـلا[١]
تُـوَزِّعُ صُـرَّادَ جِـفَـانُـهُـمْ
إذاأصبحتْ نجـدٌ تـسـوقُ الأفَـائِـلا[٢]

وقوم لبيد سراة أعلام، يؤمون الفضائل والمعالي ويتنسمون ذراها، وهم شجعان أشداء في الحروب، رحماء بالأسرى، فكم من أسير أطلقوا سراحة فانطلق مغتبطاً هانئاً، وكم من جيش فلوه، حتى أنهم تعرضوا لسراة القوم، وهم يحفظون حق الجوار وينغصون على خصومهم الذين حاولوا هدم تاريخهم ولكنهم بالمرصاد، فقد أذلوهم وانتصروا عليهم بأسياف علت المناقل:

أولئـكَ قـومِـي إن تُـلاَقِ سَـرَاتَـهُـمْ
تَجِـدْهُم يَؤُمُّـونَ العُـلا والفَـواضِـلا[٣]
ولن يَعـدَمُـوا في الحـرب ليثاً مجُّـرباً
وذا نَـزَلٍ عـنـد الـرزيـة بَـاذِلاً[٤]

---

(١) الصيام الحوافل: القدور الممتلئة.

(٢) صراد: سحاب بارد لا ماء فيه. الأفائل: الفصلان.

(٣) سراتهم: كبارهم، زعماءهم.

(٤) ذو نزل: رجل كثير الفضل والعطاء والبركة.

وَعَــانٍ فــككــنــاهُ بــغــيــر سِــوَامِــهِ
فــأصبــح يمشي في المحَلَّةِ جَــاذِلاَ[١]

لَهُمْ فَخمَــةٌ فيهــا الــحــديــدُ كَثِيفَــةٌ
تــرى البيض في أعناقِهِمْ والمعَــابِـلا[٢]

ضَــرَبنا سُــرَاةَ القــومِ حتى تَــوَجَّهُــوا
سِــراعَــاً وقــد بَــلَّ النجيعُ المَحَــامِـلا[٣]

نُــؤدي الــعــظِيــمَ لــلجــوارِ ونــبــتــنــي
فَعَــالًا وقــد نُنْكِي العــدو المُسَــاجِــلا[٤]

لــنــا سُنَّــةٌ عَــادِيَّــةٌ نــقــتــدي بــهــا
وسَــنَّــتْ لأُخْــرَانَــا وفــاءً ونــائــلا[٥]

يُــذَبْذِبُ أقــوامَــاً يــريــدُون هَــدْمَهَــا
نِــيَــافٌ يَــبُــذُّ الــوَاسِــعَ الــمتَــطَاوِلا[٦]

---

(١) العاني: الأسير. السوام: المساومة. جاذل: فرح.

(٢) فخمة: كتيبة ضخمة. المعابل: جمع معبلة وهي النصل الطويل العريض.

(٣) المحامل: حمائل السيف.

(٤) المساجل: المبارز، المعارض. ننكي: نغيظ.

(٥) عادية: قديمة.

(٦) يذبذب: يحدث اضطراباً. نياف: العالي المرتفع. يبذ: يفوت. الواسع المتطاول: ذو الذرع العريض.

صَبَرْنَا لَهُمْ في كل يوم عَظيمة
بأسْيافِنَا حتى عَلَوْنَا المَنَاقِلا[1]
وإن تسألوا عنهم لدى كل غَارَةٍ
فقد يُنْبَأُ بالأخبارِ من كان سائلاً
أولئكِ قومي إن سألتَ بخِيمِهِم
وقد يُخْبَرُ الأنبَاءَ من كان جَاهِلا[2]

هذا هو فخر لبيد في الجاهلية، ويستغرق قسماً كبيراً من الديوان.

أما فخره في الإسلام فقليل جداً. فقد أنعم الله عليه بنعمة القرآن، ومحى ما كان في نفسه من بقايا الجاهلية، ومعظم الأخبار تصوره بعد إسلامه رجلاً كريم النفس، صافي الطبع، حلو الشمائل معتدل المزاج، لم يستبق من أمور الجاهلية إلا ما يتلاءم مع قيم الإسلام وتعاليمه السمحاء، لذلك فإنه انصرف عن الفخر في حياته الإسلامية، وكان إذا سمع من يعيب قومه رده حازماً ثم استغفر الله من الفخر، مما يدل على أن الإسلام كان عميقاً في نفسه، إذ أنه نهى عن التنابذ والتفاخر بالأنساب والأحساب.

(١) المناقل: الثنايا.
(٢) الخيم: الخلق والشيمة.

الملحقة

يقال أن لبيد أنشد النابغة معلقته هذه، فقال له: اذهب فأنت أشعر العرب.

عَفَت الدِّيارُ محلُّها فمُقامُها
بمِنى تأبّد غَوْلُها فرجامُها[١]

فمدافعُ الريّان عُرِّيَ رسمُها
خَلَقاً كما ضمِن الوُحيَّ سِلامُها[٢]

دِمَنٌ تجرَّم بعد عهد أنيسِها
حِججٌ خَلَونَ حَلالُها وحرامُها[٣]

رُزِقتْ مرابيعَ النجوم، وصَابَها
وَدْقُ الرَّواعدِ جَوْدُها فَرِهَامُها[٤]

---

(١) عفت: انمحت. المحل من الديار: ما حلّ فيه لأيام معدودة. المقام منها: ما طالت الإقامة فيه. منىً: موضع. تأبد: توحش. غولها ورجامها: جبلان معروفان.

(٢) مدافع: مسايل الماء. الريان: جبل معروف. الوُحيّ: الكتابة. السلام: الحجارة. الواحدة: سلِمة بكسر اللام.

(٣) الدِّمن: الآثار. تجرّم: انقطع أو تكمل. العهد: اللقاء. حججٌ خلون: سنون مضين. حلالها وحرامها: هي الأشهر الحرم وأشهر الحل.

(٤) مرابيع النجوم: أنواء الربيع، وهي المنازل التي تحلُّها الشمس فصل الربيع. الصوب: الإصابة. وصابها: اصابها. الوَدْق: المطر. الجود: المطر التام العام. والرواعد: ذوات الرعد من السحاب. والرهام: المطر الخفيف اللين.

مِـن كـلِّ ساريـةٍ وغـادٍ مُـدْجِـنٍ
وعـشـيـةٍ مُـتـجـاوبٍ إرزامـهـا[1]

فـعـلا فـروعَ الأيـهـقَـانِ وأطـفـلت
بـالـجهلتيـن ظِبـاؤُهـا وَنَـعـامـهـا[2]

والـعـيـنُ عـاكـفـةٌ عـلى أطـلائـهـا
عُـوذاً تـأجَّـلُ بـالفضـاءِ بِهـامُهـا[3]

وجـلا السيـولُ عـن الـطلولِ كـأنها
زُبُـرٌ تُـجِـدُّ مُـتـونـهـا أقـلامُـهـا[4]

أو رجْـعُ واشـمـةٍ أُسِـفَّ نـؤورهـا
كِـففـاً تـعـرَّض فـوقهـنَّ وِشَـامـهـا[5]

---

(١) السارية: السحابة الليلية الماطرة. المدجن: الملبس آفاق السماء بظلامه. الأرزام: التصويت.

(٢) الأيهقان: الجرجير البرّي. اطفلت: صار لها أطفال. الجهلتين: جانبي الوادي.

(٣) العين: بكسر العين: واسعات العيون. الاطلاء: ولد الوحش حين يولد إلى أن يأتي عليه شهر. عوذاً: حديثات النتاج. الأجل: القطيع من بقر الوحش. الجمع: آجال. الفضاء: الصحراء. البهام: أولاد الضأن.

(٤) جلا: كشف. الزُبر: جمع الزبور: الكتب. تجد: تجدد.

(٥) الرجع: الترديد. الاسفاف: الذر. نؤورها: دخانها. كففاً: مستديرات. تعرض: تظهر. الوشم: الكتابة على الجسم عن طريق الوخز بالإبر.

فوقفتُ أسألها وكيف سؤالنا
صُماً خوالدَ ما يبينُ كلامها(١)
عَرِيَتْ وكان بها الجميعُ فأبكروا
منها، وغودِرَ نُؤْيها وَثُمَامُهَا(٢)
شاقتك ظُعنُ الحيِّ حين تحمَّلوا
فتكنَّسوا قُطُناً تَصِرُّ خِيَامُها(٣)
من كلِّ محفوف يُظلُّ عِصيَّهُ
زوجٌ عليه كِلَّةٌ وَقِرَامُها(٤)
زُجَلاً كأنَّ نِعاجَ تُوضِحَ فوقها
وظباءَ وجرةَ عُطَّفاً أرآمُها(٥)

---

(١) الصمُّ. الخوالد: الصلابُ البواقي. يبين: يظهر.

(٢) أبكروا: بكرت من المكان: سرت منه بكرة. النؤي: نهير يحفر حول البيت لينصبَّ إليه ماء البيت. الشمام: نوع من شجر اللين الذي يسد به ما في البيوت من خلل.

(٣) الظُعن: الرواحل. تحمّلوا: ارتحلوا. تكنسوا: دخلوا الكُناس واستكنوا به. القطن: جمع قطين وهو الجماعة. الصرير: صوت الباب.

(٤) محفوف: حُف الهودج بالثياب: إذا غُطي به. وحفَّ الناس حول الشيء: أحاطوا به. عصية: عيدان الهودج. الزوج: ضربٌ من الثياب. كلة: ستر رقيق. القرام: الستر.

(٥) الزجل: الجماعات. النعاج: أناث بقر الوحش. توضح ووجرة: موضعان. عطفًا: كثيري العطف أي الثني. أرآمها: جمع رئم أي الظبي الخالص البياض.

حُفِزَتْ وَزَيَّلها السرابُ كأنها
أجزاعُ بيشةَ أثْلُها وَرُضَامُهَا[1]
بل ما تذكَّرُ من نَوار وقد نأتْ
وتقطعتْ أسبابُها ورِمامُها[2]
مرِّيَّةٌ حلَّتْ بِفَيدَ، وجاورت
أهل الحجاز، فأين منك مَرامُها[3]
بمشارق الجبلَين أو بِمُحَجَّر
فتضمنتها فردةٌ فرُخامها[4]
فَصُوائِقٌ إن أيمنتْ فمِظَنَّةٌ
منها وِحَافُ القهر أو طِلخامُها[5]
فاقطعْ لُبانَةَ مَن تعرَّض وَصْلُهُ
ولَشرُّ واصِلِ خُلَّةٍ صَرَّامُها[6]

---

(١) الحفز: الدفع. الأجزاع: جمع جزع وهو منعطف الوادي. بيشة: اسم واد. الأثل: شجر. الرضام: الحجارة.

(٢) نوار: اسم المرأة التي يتشبب بها الشاعر. النأي: البُعد. الرمام: قطعة من الحبل خلقة ضعيفة.

(٣) مرية: نسبة إلى بني مرّة. فيد: اسم بلدة.

(٤) عنى بالجبلين جبلي طيء أجأ وسلمى. محجر: اسم جبل. فردة: جبل منفرد عن سائر الجبال. رخام: أرض متصلة بالجبل المنفرد.

(٥) صوائق: وحاف القهر وطلخام أسماء امكنة.

(٦) اللُبانة: الحاجة. الخلة: المودة المتناهية. الصرام: القطاع.

واحْبُ المُجامِلَ بالجزيلِ، وصرمُهُ
باقٍ إذا ظلعَتْ وزاغَ قِوامُها[1]

بطليحِ أسفارٍ تركْنَ بقيَّةً
منها، فأحنق صلبُها وسَنامُها[2]

فإذا تغالى لحمُها وتحسَّرت
وتقطعتْ بعد الكَلالِ خِدامُها[3]

فلها هِبَاتٌ في الزِّمام كأنها
صَهباءُ خفَّ مع الجنوب جَهامُها[4]

أو مُلْمِعٌ وسقَتْ لأحقبَ لاحَهُ
طَرْدُ الفحول وضربُها وكِدامُها[5]

---

(١) حبوته: اعطيته. المجامل: الذي يجامل بالمودة. المصانع. الظلع: غمز في الدواب. الزيغ: الميْل. والازاغة: الإمالة. قوام الشيء: ما يقوم به.

(٢) طليح: معيي. الأحناق: الضمر.

يقول الزوزني: «فأنت تقدر على قطيعته بركوب ناقة قد اعتادت الأسفار ومرنت عليها. فضمر صلبُها وسنامها.

(٣) تغالى لحمها: ارتفع إلى رؤوس العظام. تحسرت: كالّة عارية من اللحم. الخدام سيور تشدُّ بها النعال إلى ارساغ الإبل.

(٤) هباب: نشاط. الصهباء: الحمراء. أي كأنها سحابة صهباء. خفَّ: أسرع. الجهام: المطر.

(٥) المعت الأتان: أشرف طيبها باللبن. سقت: حملت. الأحقب: البعير الذي في وركيه بياض. لاحه ولوحه: غيره. الكدام: بمعنى الكدم وهو العض.

يعلو بها حَدَبَ الإكام مسحَّجٌ
قد رابه عصيانها ووحامها[1]

بأحِزَّةِ الثَّلَبُوتِ يربَأُ فوقها
قفرُ المراقب خوفها أرْآمها[2]

حتى إذا سلخا جُمادى ستة
جزْأً فطال صيامُه وصيامُها[3]

رجعا بأمرهما إلى ذي مِرَّةٍ
حَصِدٍ، ونُجعُ صريمةٍ إبرامها[4]

ورمى دوابرَها السفا، وتهيّجت
ريحُ المصاريف سَومُها وسِهامُها[5]

---

(١) جدب الإكام: ما أحدودب من الأكام. السجع: القشر أو الخدش. الوحام: اشتهاء الحبلى بالشيء.

(٢) الأحزة: القفّ. الثلبوت: اسم مكان. القفر: الخالي. المراقب: جمع مرقبة وهو الموضع الذي يقوم عليه الرقيب ويريد بها الأماكن المرتفعة. أرآم: اعلام الطريق.

(٣) سلخا جُمادى ستة: أي سلخا ستة أشهر من الشتاء جُمادى؛ اسم للشتاء. جزأ: اكتفى بالرطب عن الماء.

(٤) ذي مرة: قوي. شديد البأس. حصد: محكم. الصريمة: العزيمة. الإبرام: الإحكام.

(٥) الدوابر: مآخر الحوافر. السفا: الشوك. تهيجت: تحركت. المصايف: الصيف. السوم: المرور. السهام: شدّة الحر.

فتنازعا سَبِطا يطيرُ ظلاله
كدُخان مشعَلةٍ يشبُّ ضِرامها[١]

مشمولةٍ غلِثت بِنابت عرفج
كدخان نار ساطع أسنامها[٢]

فمضى وقدَّمها وكانت عادة
منه إذا هي عرَّدت إقدامها[٣]

فتوسَطا عَرضَ السريِّ، وصدَّعا
مسجورةً مُتجاوراً قُلاَّمُها[٤]

محفوفةً وسط اليراع يُظِلُّهَا
منه مُصرَّع غابة وقيامها[٥]

---

(١) التنازع: التجاذب. السبط: هنا الدخان الطويل الممتد. الضرام: دقاق الحطب. وقد ضرمت النار: التهبت.

(٢) مشمولة: هبت عليها ريح الشمال. غُلثت: خُلطت. العرفج: ضرب من الشجر. الأسنام: جمع سنام وهو الارتفاع والرفع.

(٣) عردّت: أخرّت. الإقدام: هنا بمعنى التقدمة أي تقدمتها. لذلك أنث الفعل.

(٤) السريّ: النهر الصغير. التصديع: التشقيق. مسجورة: ملأى. القلّام: النبات.

(٥) اليراع: القصب. المصرّع: مبالغة المصروع. الغابة: الأجمة. القيام: جمع قائم.

أَفَــتــلكَ أمْ وحــشــيــةٌ مــســبــوعــةٌ
خــذلتْ، وهــاديــةُ الصِّـوارِ قِــوامهــا[١]

خنســاءُ ضيَّعت الـفـرَيـر فـلم يَـرِمْ
عُــرضَ الشقـائق طَـوفُهـا وبُغـامهـا[٢]

لِـمُـعـفَّـرٍ قـهـدٍ تـنـازع شِـلْوَهُ
غُبسٌ كـواسبُ لا يُمنُّ طعـامهـا[٣]

صـادفْـنَ مِـنـهـا غِـرَّةً فـأصبـنْـهـا
إنَّ الـمـنـايـا لا تـطيش سـهـامهـا[٤]

بـاتـت، وأسبـل واكـفٌ من ديـمـةٍ
يُــروي الخمـائـل دائمـاً تَسجـامُهـا[٥]

---

(١) مسبوعة: أي قد أصابها السبع بافتراس ولدها. هادية: متقدمة. الصوار: قطيع بقر الوحش.

(٢) خنساء: متأخرة الأرنبة. الفرير: ولد البقرة الوحشية. لم يرم: لم يبرح. العرض: الناحية. الشقائق: جمع شقيقة أرض بين رملتين. البُغام: الصوت الرقيق.

(٣) معفر: ملقى على أديم الأرض. قهد: أبيض. التنازع: التجاذب. شلوه: بقية جسده. غبس: رمادية. المنُّ: القطع.

(٤) الغفلة والطيش: الانحراف والعدول.

(٥) وكف: قطر والوكف القطر. ديمة: المطرة التي تدوم مدة. الخميلة: الرملة ذات النبت. تسجامها: انصبابها.

يـعلو طـريـقـةَ مَـتـنهـا متـواتـرٌ
في ليلة كَفَـرَ النجـومَ ظَـلامهـا(١)
تـجتـاف أصـلاً قـالـصـاً متـنبِّـذاً
بعُجـوبِ أنـقـاء يميـلُ هُيـامهـا(٢)
وتـضـيءُفـي وْجـه الـظلام مُـنـيـرةً
كجُمـانـة البحـريِّ، سُـلَّ نِـظامهـا(٣)
حـتـى إذا حَـسَـرَ الـظلامُ وأسفـرت
بكـرت تـزلُّ عن الثـرى أزلامهـا(٤)
علِهَـتْ تَـرَدَّدُ فـي نـهـاء صـعـائـد
سَـبعـاً تُـؤامـاً كـامـلاً أيّـامُـهـا(٥)

---

(١) طريقة متنها: خطٌ من ذنبها إلى عنقها. كفر: غطى.

(٢) الاجتياف: الدخول في جوف الشيء. التنبذ: التنحي. العجُب: أصل الذنب. النقا: الكثيب من الرمل. الهيام: ما لا تماسك به من الرمل. يقول الزوزني في شرحه: «وقد دخلت البقرة والوحشية في جوف أصل شجرة متنحٍ عن سائر الشجر. وقد قلصت اغصانها، وذلك الشجر في أصول كثبان الرمل يميل ما لا يتماسك منها عليها لهطلان المطر وهبوب الريح».

(٣) وجه الظلام: أوله. جمانة: الدرّة المصوّغة من الفضة. البحري: الصدف البحري.

(٤) الانحسار: الانكشاف والانجلاء. الاسفار: الاضاءة. الازلام: القوائم.

(٥) العلة والهلع بمعنى واحد. تردد: تتردّد. نهاء: جمع نهي أي غدير. صعائد: اسم مكان. تؤاماً: جمع توأم.

حتى إذا يَئستْ وأسحَقَ حالقٌ
لم يُبْلِه إرضاعها، وفطامها[1]

فتوجست رِزَّ الأنيس، فراعَها
عن ظهر غيب والأنيسُ سقامها[2]

فغدتْ كِلا الفرجَين تحسب أنه
مَولى المخافة خلفُها وأمامها[3]

حتى إذا يئس الرُّماةُ وأرسلوا
غُضفاً دواجِن قافلاً أعصامها[4]

فلحِقِنَ واعتكرت لها مدريَّة
كالسمهريَّة حدُّها وتمامها[5]

لِتذودهنّ وأيقنتْ إن لم تَذُد
أن قد أحمّ من الحتوف حمامها[6]

---

(١) السحق: الخلق. والاسحاق: الاخلاق. حالق: ضرع ممتلىء لبناً.
(٢) الرزّ: الصوت الخفي. راعها: أفزعها. السقام: المرض. والسقيم المريض.
(٣) الفرج: موضع المخافة. وما بين قوائم الدواب فرج. مولى: قال ثعلب: «إن المولى في هذا البيت بمعنى الأولى بالشيء. كقوله تعالى: ﴿مأواكم النار هي مولاكم﴾. أي «أولى بكم».
(٤) غضفاً: مسترخيات الأذان. الدواجن: المعلمات. قافلاً اعصامها: بطونها يابسة ضامرة.
(٥) عكر واعتكر: عطف. المدرية: طرف القرن. السمهرية: رماح منسوبة إلى قين يدعى سمهر في البحرين.
(٦) لتذودهنَّ: لتردّهن. أحم: قرب. الحتوف والحمام: بمعنى الموت. .

فتقصَّدت منها كساب، فضُرِّجتْ
بدم، وغودر في المكَرِّ سُخامها(١)
فبتلكَ إذ رقص اللوامعُ بالضحى
واجتاب أردية السراب إكامها(٢)
أقضي اللُّبانَةَ لا أفرِّطُ ريبة
أو أن يلومَ بحاجةٍ لَوّامها(٣)
أوْ لم تكن تدري (نوارُ) بأنني
وصَّالُ عقدِ حبائلٍ، جَذّامها(٤)
تَرّاكُ أمكنة إذا لم أرضها
أو يعتلق بعض النفوسِ حِمامها(٥)
بل أنتِ لا تدرين كم من ليلة
طَلْقٍ لذيذٍ لهوُها ونِدامُها(٦)
قد بِتُّ سامرها، وغايةِ تاجر
وافيتُ إذ رُفِعتْ وعزَّ مُدامُها(٧)

(١) تقصدت: قتلت. كساب وسخام: أسما كلبين. المكرّ: موضع الكرّ.
(٢) فبتلك: أي الناقة. اللوامع: لوامع السراب. اجتاب: لبس.
(٣) اللبانة: الحاجة. التفريط: التضييع. الريبة: التهمة. اللوّام: مبالغة اللائم.
(٤) الحبائل: مستعارة هنا للعهد والمودة. الجذم: القطع.
(٥) أراد ببعض النفوس نفسه. والحمام: الموت.
(٦) ليلة طلق: ليلة ساكنة لا حر فيها ولا قرّ. الندام: جمع نديم.
(٧) الغاية: راية ينصبها الخمار ليعرف مكانه. وأراد بالتاجر الخمّار. وافيت المكان: أتيته. المدام: الخمر. سميت بها لأنها قد أديمت في دنها.

أغلي السِّباءَ بكلِّ أدكنَ عاتقٍ
أو جونةٍ قُدحتْ وفُضّ خِتامها[١]

وغداةِ ريحٍ قد وزَعْتُ وقِرَّةٍ
قد أصبحت بيدِ الشمال زمامها[٢]

بصبوحِ صافيةٍ وجذب كرينةٍ
بمُوَتَّرٍ تأتالُهُ إبهامها[٣]

بادرتُ حاجتها الدجاج بسُحْرَةٍ
لأَعَلَّ منها حين هبَّ نيامها[٤]

ولقد حميت الحيّ تحمل شِكّتي
فُرُطٌ وشاحي، إذ غدوتُ لجامُها[٥]

---

(١) السباء: الخمرة المشتراة. الأدكن: الذي فيه دكنة. الجونة: السوداء. والمعنى: أو خابية سوداء. قدحت: غرفت. فض: كبير.

(٢) وروي البيت أيضاً:

وغداة ريح قد وزعت وقرة
إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

القِر والقَر: البرد. وشرح البيت: كم من غداة تهب فيها ريح الشمال. قد كففت عادية البرد بنحر الجزر للناس.

(٣) الكرينة: الجارية العوّادة جمع كرائن. الأتيال: المعالجة، أراد بأوتار العود.

(٤) بادرت حاجتها الديوك بسحرة: أي تعاطيت بشربها قبل أن يصدع الديك. لأعل: لأشرب منها مرة بعد أخرى.

(٥) الشكّة: السلاح. فُرُطٌ: فرس متقدم سريع خفيف. يقول: لقد حميت قبيلتي بفرس متقدم سريع ووشاحي لجامها.

فـعلَوتُ مـرتـقـيـاً عـلى ذي هـبـوة

جِـرِجٍ إلى أعـلامهـنَّ قـتـامـهـا[1]

حـتـى إذا ألـقـت يـداً فـي كـافـر

وأجَـنَّ عـوراتِ الـثُّـغـورِ ظـلامـهـا[2]

أسهلت وانـتـصـبتْ كـجـذع مـنـيـفـةٍ

جـرداءَ يـحـصُـرُ دونـهـا جُـرَّامـهـا[3]

رفـعـتُـهـا طـرد الـنـعـام وشـلُّه

حتى إذا سـخـنـت، وخـف عـظامـهـا[4]

قـلقتْ رحـالـتُـهـا وأسـبـل نـحـرهـا

وابتـلَّ من زبـد الحـمـيم حـزامـهـا[5]

---

(١) مرتقباً: المرتقب. المكان المرتفع الذي يقوم عليه الرقيب. الهبوة: الغبرة. الحرج: الضيق جداً. الأعلام: الجبال أو الريات. القتام: الغبار.

(٢) الكافر: الليل والكفر: الستر. سمي به لكفره الأشياء أي لستره. الأجنان: الستر. الثغور: مواضع المخافة. عورات الثغور: أشدها مخافة.

(٣) أسهل: أتى السهل من الأرض. المنيفة: العالية الطويلة. جراد: قليلة السعف. الحصر: ضيق الصدر. جرامها: الذي يجرم النخل أي يقطع احماله.

(٤) رفعتها: مبالغة رفعت.

المعنى: يقول الزوزني: حملت فرسي وكلفتها عدواً مثل عدو النعام حتى إذا جدَّت في الجري وخفّ عظامها في السير.

(٥) القلق: سرعة الحركة. الرحال: السرج. أسبل: أمطر. أزبد الحميم: قطر العرق.

ترقى وتطعن في العنان، وتنتحي
ورِد الحمامة إذ أجدَّ حَمَامها[١]

وكثيرةٍ غرباؤها، مجهولةٍ
تُرجى نوافلها، ويُخشى ذامها[٢]

غُلبٍ تشذَّر بالذحول كأنها
جنُّ البَديِّ، رواسيا أقدامها[٣]

أنكرتُ باطلها وبؤتُ بحقها
عندي ولم يفخر عليَّ كرامها[٤]

وجزَور أيسارٍ دعوت لحتفها
بمغالقٍ مُتشابهٍ أجسامها[٥]

أدعو بهنَّ لعاقرٍ أو مطفل
بذلت لجيران الجميع لِحامُها[٦]

(١) ترقى: تصعد. تنتحي: تعتمد.
(٢) نوافلها: عطاياها. ذامها: عيبها.
(٣) الغلب: الغلاظ الأعناق. التشذر: التهدد. الذحول: الأحقاد، الواحد ذحل. البديّ: اسم موضع. الرواسي: الثوابت.
(٤) ابوء بالنعمة: أقرُّ بها، وروي «يوماً» بدل «عندي».
(٥) جزور: الشاة المعدّة للذبح، ايسار: جمع يسر وهو صاحب اليسر. المغالق: سهام.
(٦) العاقر: المرأة التي لا تلد. مطفل: التي لها أطفال. اللحام: جمع لحم.

فـالـضيـف والجـار الـجنيبُ كـأنـمـا
هبـطا تبـالَـةَ مخصبـاً أهضـامـهـا[1]
تـأوي إلــى الأطــنـاب كــلُّ رذيَّـة
مثـلِ البـليـة قـالصٍ أهـدامـهـا[2]
ويـكـلِّلون إذا الـريـاح تـنـاوحـت
خُـلجـاً تُمَـد شـوارعـاً أيتـامـهـا[3]
إنَّـا إذا التقَت المجـامـع لـم يَـزَلْ
مـنَّـا لِـزازُ عـظيـمـة جَـشَّـامـهـا[4]
ومـقـسّـمٌ يـعـطي الـعشيـرة حقَّـهـا
ومُـغـذمَـر لحقـوقهـا، هـضَّـامهـا[5]

---

(١) الجنيب: الغريب. تبـاله: واد خصيب من أودية اليمن. الهضيم: المطمئن من الأرض.

(٢) الأطناب: حبال البيت. الرذية: الناقة التي تتخلف في السفر لفرط هزالها. البلية: الناقة التي تشد على قبر صاحبها حتى تموت. قالص: القلوص من القصر. الاهدام: الاخلاق من الثياب، الثياب البالية الرثة.

(٣) تناوحت: تقابلت. الخُلجُ: نهر صغير يخلج من نهر كبير أو من بحر. تُمد: تزاد. شوارع: جمع شارع: أي خائض.

(٤) اللزاز: الذي يلزم الشيء ويعتمد عليه يقال لُزَّ فلان بفلان إذا لزمه. والمعنى: إذا اجتمعت جماعات القبائل، فلم يزل يسودهم رجل منا يقمع الخصوم عند الجبال، ويجشم عظامهم.

(٥) مغذمر: غاضب. الهضم: الظلم.

فضلاً وذو كرمٍ يعين على الندى
سمحٌ كسوب رغائب غنّامها[1]

من معشر سنَّت لهم آباؤهم
ولكلِّ قوم سُنةٌ وإمامها[2]

أن يفزعوا تلق المغافرَ عندهم
والسنّ يلمع كالكواكب لامُها[3]

لا يطبعون ولا يبور فَعالُهم
إذ لا تميل مع الهوى أحلامها[4]

فاقنع بما قسم المليك، فإنما
قسم الخلائقَ بيننا علاّمها[5]

وإذا الأمانة قُسّمت في معشر
أوفى بأوفر حظنا قسّامها[6]

فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه
فسما إليه كهلها وغلامها[7]

---

(١) الندى: الجود. الرغائب: هي ما رغب فيه من خصلة أو غيرها. غنام: مبالغة الغانم.

(٢) سُنة: شرعة.

(٣) يفزعوا: يستغيثوا ويلجأوا. السن: الأسنة. اللام: الدرع.

(٤) الطبع: تدنس العرض وتلطخه. يبور: يفسد.

(٥) المليك: الله تعالى.

(٦) معشر: قوم. أوفى: كمل ووفر. والوفور: الكثرة.

(٧) ورويَ البيت: «فبنوا» بدل «فبنى».

وهم السُّعاة إذا العشيرة افظعت
وهم فوارسُها وهم حُكّامها[١]
وهمُ ربيعٌ للمجاور فيهمُ
والمرملاتِ، إذا تطاول عامُها[٢]
وهمُ العشيرة أن يبطّىء حاسد
أو أن يميل مع العدوِّ لئامها[٣]

---

(١) السعاة: جمع الساعي. أفظعت: بأمر فظيع.

(٢) أرمل القوم: نفذ زادهم.

(٣) قوله أن يبطىء حاسد: يقول الزوزني: معناه على قول البصريين كراهية أن يبطيء حاسد وأن يميل. وعند الكوفيين: «ألا يبطىء حاسد. وألاّ يميل كقوله تعالى: ﴿يبين لكم الله أن تضلوا﴾ أي كراهية أن تضلوا. أو كي لا تضلوا، أو ألاّ تضلوا.

والمعنى: أنهم يتوافقون ويتعاضدون كراهية أن يبطىء الحساد بعضهم عن نصر بعض، وميل لئامهم إلى الأعداء أو مظاهرتهم إياهم على الأقارب.

شرح المعلقة

يهدف لبيد في معلقته إلى غايات سامية، فهو يحلم بحياة خصبة نقية، ويلجأ إلى تصويرها تصويراً دقيقاً يكشف عما فيها من الحب والغيرة والخيبة والإصرار.

لقد فهم لبيد الحياة بعمق، لذلك تاق إلى رؤيتها خالية من كل كدر، وحاول تنقيتها من كل ما يشوبها من الألوان التي لا تستهويه، فلجأ إلى عرض طائفة من القصص الساحرة الجميلة. ولبيد كغيره من شعراء الجاهلية يستهل معلقته بالوقوف على الأطلال، ويبدو ذلك وكأنه يلخص كل ما في القصيدة من أفكار مقاومة الدهر والفناء والتعلق بالحياة واستمرارها نقية رائعة. وهو في حديثه عن الأطلال يذكر أماكنها وما أصابها بعد رحيل الأحبة، وما مرّ بها من الحظوب والأحداث بتنسيق جميل وتسلسل لا يعرف الضعف والتفكك. فالحياة السابقة لم تذهب ولكنها استقرت في الذاكرة وفي الأطلال، ولا تلبث السماء أن تجود بالأمطار فتنمو البذور وترتفع نباتاً وتدب الحياة من جديد فتسرح قطعان الظباء والنعام وبقر الوحش ساكنة مطمئنة، وتتجمع أولادها في الفضاء أجلاً أجلاً، ثم يلتقي الحاضر بالماضي، لقد بعث المطر الحياة، ثم راح السيل يجدد الماضي

ويكشف عنه الركام، فإذا الكتابة تعاد وتتجدد، وإذا الوشم يردد مرة إثر مرة، وإذا الزمن تيار لا يعرف الانقطاع. تلك صورة الخيال التي ارتسمت في عقل الشاعر، وسرعان ما يستيقظ من حلمه ويصطدم بصخرة الواقع، فهو لا يرجو أملاً من مساءلة الديار، لأنها عريت بارتحال الأحبة الذين كانوا مصدر البهجة والجمال والفرح، والشاعر في تصوير رحيل الأحبة يعبر عن شوقه إليهم، وحزنه لفراقهم، وفي هذا الجو العاطفي المرهف أدرك الشاعر حزمه وعزمه، فانصرف عن البكاء الذي لا ينبغي له أن يطول إلى الحديث عن صاحبته نوار وما يعانيه من يأس ومرارة، فهو ناء عنها لا يأمل إليها وصولاً، ولعلها تكون في الحجاز أو في اليمن، أو في غيرهما من المواضع، ويوسع الشاعر المعنى في هذا المجال، إلى أن ينتهي إلى نتيجته المحتومة وهي اليأس المريح والتأسي عن الحزن بالارتحال:

فاقطع لبانة من تعرض وصله
ولخير واصل خله صرامها
واحب المجامل بالجزيل وصرمه
باق إذا ضلعت وزاغ قوامها
بطليح أسفار تركن بقية
منها فأحنق صلبها وسنامها.

متذكراً (نوار) التي تقطعت الأسباب بينه وبينها، محافظاً في تذكره على إبائه وكرامته راسماً منهجاً له في الحب يقتضي فيه أن يكون الحب متبادلاً بين الطرفين، بين الرجل والمرأة، لذلك فهو يرى أن يقطع حاجته من كل من لم يستقم له مودته، ويظهر المودة لمن أظهرها له، إنها سنة الحياة وحكمة الوجود، ولما يئس من لقاء نوار تعز عنها باقتحام الصحراء وتجشم أهوالها وهو يصل إليها دون تكلف ولا مشقة ويربط النتيجة بالسبب مباشرة دون التواء وجهد، وفي رحلته عبر الصحراء يتحدث عن ناقته، عونه في تنقلاته وأسفاره، ويمعن الشاعر في وصف سرعة الناقة وجلدها وتحملها قطع المفازات بجلد وقوة تحمل، مستخدماً أساليب التشبيه والاستعارة والمجاز ليغني الصورة ويوشح قصصه بالرواء والجمال، فهو يشبهها حيناً بالسحاب الخفيف الذي يطيع أيسر الريح، وحيناً آخر بالأتان الوحشية، وقد تنافست فيها الفحول، وازدحمت عليها، وكثر فيما بينها الخصام، ثم استطاع واحد منها أن يظفر بها من دون أصحابه، وأن يصطفيها لنفسه ظاناً أن له عليها حقاً، لكن الشك سرعان ما تسرب إلى نفسه، وارتاب، وملكت عليه أمره، فآثر حياة العزلة، خاصة بعد أن رأى تمنع صاحبته وتجنيها عليه، فهو يدفعها أمامه، وهي تمضي مسرعة تود لو تفوته، وهو يعدو في

إثرها، وما يزالا على ذلك حتى تتم لهما العزلة في مكان مرتفع، خالٍ من الماء، كثير النبت والعشب، ويقضيان في هذا المكان فصل الشتاء فيرعيان النبات الرطب، وإذ ينقضي الشتاء ويقبل الحر، ويجف النبات، يشتد بهما العطش، فهما في حاجة إلى الماء، وهو غير متيسر، ولا مناص من التفتيش عنه، وبعد تردد، صمما على ورود الماء، فدفعها أمامه لتسعى بين يديه غير قادرة على أن تتخلف عنه أو تفلت منه، وهي في عدوها السريع لا تأبه للشوك الذي يصيب دوابرها، محاولة الفرار، ولكنه لها بالمرصاد. ويثيران في عدوهما غباراً رقيقاً كأنه ثوب يتنازعانه، أو كأنه دخان نار مضطرمة أوقدت باليابس، حتى يصلا إلى الماء وهو ينبعث من عين غزيرة تجري في غابة من القصب قد عبثت بها الريح.

ويرمز الدكتور مفيد قميحة في تحليله لمعلقة لبيد بالشتاء إلى حالة الاضطراب والتمرد، وبالربيع إلى عودة الهدوء والصفاء والبهجة، وبالصيف إلى حالة السعي الذي يمثله الورود إلى الماء، وهذا التحليل ينطبق على طبيعة الحياة الإنسانية، ولعله يتطابق مع ظروف حياة لبيد وأحداثها.

حتى إذا سلخا جمادى ستة
جزأ فطال صيامه وصيامها

رجـعـا بـأمـرهـمـا إلـى ذي مـرة
حـصـد ونـجـح صـريـمـة إبـرامـهـا
ورمـى دوابـرهـا الـسـفـا وتـهـيـجـت
ريـح المصـايـف سـومـهـا وسـهـامـهـا.

والصراع في قصة البقرة الوحشية أعنف منه في القصة السابقة، ومواطن الخوف أكثر، إنها صورة العدوان الشرس على الحياة وللإيمان العميق بها أيضاً، تبدو فيها مشاعر الندم والحزن والحيرة القاتلة، والتعلق بالحياة والدفاع عنها، وهي قصة تفيض بالحياة، وبالعاطفة، قصة البقرة الوحشية البائسة التي غالها الحزن والندم فراحت تطلب ولدها الذي غفلت عنه ففرسته السباع، وانطلقت هائمة في الأرض سبعة أيام كاملة، تفتش ما وسعها النهار، حتى إذا أدركها الليل راحت تلتمس لنفسها في أصول الشجر الملتفت بحيث يقيها المطر والبرد، وكانت هذه البقرة تفتش عبثاً فقد أكل ابنها السبع ولم يبق منه إلاّ أشلاء مطروحة على رمل الصحراء، وبينما هي تبحث عن أمومتها الضائعة يطاردها عدوان شرس يهدد حياتها، وإذا هذه الأم الحزينة بقرة يطلبها القناص، وإذا غريزة الدفاع عن النفس والحرص على الحياة تغلب غـريـزة الأمـومـة فتنـدفـع مسرعة لا تلوي على شيء وقد ملكها الرعب وتسلم نفسها لقوائمها النحاف حتى أيأست الرماة، وفاتت النبل، إلاّ أن

كلاب الصيد كانت بالمرصاد فعدت خلف البقرة، وإذ عرفت أن لا نجاة لها إلاّ باستقبال الخطب عطفت على هذه الكلاب مسددة لها طعنات الموت حتى كتبت لها الحياة:

فتوجست رِزَّ الأنيس فراعها
عن ظهر غيب والأنيس سقامها
فغدت كلا الفرجين تحسِب أنه
مولى المخافة خلفها وأمامها
حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا
غضفاً دواجن أعصامها
فلحقن واعتكرت لها مدرية
كالسمهرية حدها وتمامها
لتذودهن وأيقنت إن لم تذد
أن قد أحم من الحتوف حمامها
فتقصدت منها كساب فضرجت
بدم وغودر في المكر سخامها.

وهكذا أشبع الشاعر تصوير ناقته وتشبيه عدوها بصور السحاب والأتان والبقرة الوحشية، حاول أن يرسم من خلالها صوراً إنسانية راقية، متمرداً على عادات مجتمعه رافضاً واقعه وتقاليده.

ثم انتقل الشاعر متحدثاً عن نفسه، فهو يحتمل الخطوب والهجران، ثم يذكر نواراً بصفاته التي ترفض الإذلال في الحب، لأنه يعتز بنفسه وبكرامته ويتمسك برجولته، فإذا أعرضت عنه أعرض عنها، ويتابع متحدثاً إليها بما يعرف لنفسه وبما يعرف الناس له من صفات الشجاعة والبأس والكرم والفروسية، ويخاطبها عاتباً مفاخراً، ويصور لها حياته في السلم لاهياً في الليل وفي النهار، متردداً على الحانات، مقامراً لا ليستكثر من الربح ولكن ليغني السائل ويطعم الجائع، ثم يتحدث لها عن فروسيته أثناء الحرب وشجاعته في مراقبة العدو وتحسس أنبائه، ويصف موقفه في محافل الخصومة والمفاخرة، وجوده الذي شمل الأقارب والأباعد.

وكثيرة عزباؤها مجهولة
ترجى نوافلها ويخشى ذامها
غُلب تشذر بالذحول كأنها
جن البدي رواسياً أقدامها
أنكرت باطلها وبؤت بحقها
عندي ولم يفخر علي كرامها.

وبعد أن أرض الشاعر نفسه وافتخر بها، تحدث عن قومه وأمجادهم، ووصفهم بما هم أهل له من الكرم والنجدة والبأس والسلطان.

وختاماً. تلك معلقة لبيد بكل ما فيها من صور الطبيعة والإنسان والحيوان، وبكل ما يرتسم فيها من معان إنسانية خلاقة، ولئن كان كثير من ألفاظها غريباً حوشياً فذلك نابع من طبيعة الصحراء الجافة التي عاش في اكنافها الشاعر، ومهما يكن فإن في قصيدته مخافة وقوة وفي قصصه جمال وروعه وقيم إنسانية، وفي بنائها إحكاماً ووحدة معنوية واتساقاً بديعاً، مما جعلها خليقة أن تكون كما قال الدكتور طه حسين من أروع ما حفظ الشعر العربي.

نماذج من شعره

في الفخر

قال يفتخر ويعدد مآثره:

أتيت أبا هِنْدٍ بهندٍ ومالكاً
بأسماءَ، إني من حُمَاةِ الحقائِقِ
دعتني وفاضتْ عينُها بخَدُورةٍ
فجئتُ غِشاشاً إذ دعتْ أُمُّ طارِقِ
وأعددتُ مأثُوراً قليلاً حُشورُه
شديدَ العِمادِ ينتحي للطرائِقِ
واخلَقَ محموداً نَجيحاً رجيعُه
وأسْمَرَ مرهُوباً كريمَ المآزِق
وخَلفْتُ ثَمَّ عامِراً وابنَ عامِرٍ
وعمرْاً وما مني بديلٌ بعاتِق
ومني على السُّبَّاقِ فضلٌ ونعمةٌ
كما نعش الدكداكَ صوبُ البوارقِ
وقلتُ لعمري كيف يُترك مَرْثَدٌ
وعمرو ويسري مالُنا في الأفارق
فلولا احتيالي في الأمور ومِرتّي
لَبيعَ سُبِيُّ بالسَّوِيِّ النوافِق

فذاك دِفاعٌ عن ذِمار أبيكمُ
إذا حزق السِّربالَ حدُّ المرافِقِ.

وله في معرض الفخر:

أقوَى وعُرِّيَ واسِطٌ فَبَرَامُ
من أهلِهِ، فَصُوائِقٌ فَخِزَامُ
فالواديانِ فكلُّ مَغْنىً منهم
وعلى المياه محاضِرٌ وخِيَامُ
عهدي بها الإنسَ الجميعَ وفيهمُ
قبل التفرقِ مَيْسِرٌ ونِدَامُ
لا تُنْشَدُ الحُمْرُ الأوالِفُ فيهم
إذ لا تُرَوَّحُ بالعَشيِّ بِهَامُ
إلا فلاءَ الخيل منها مُرْسَلٌ
ومُرَبَّطَاتٌ بالفِناءِ صِيَامُ
وجَوَارِنٌ بِيضٌ وكلُّ طِمِرَّةٍ
يعدُو عليها القَرَّتَيْنِ غُلامُ
ومُدَفَّعٌ طَرَقَ النُّبُوحَ فلم يجد
مأوىً ولم يكُ للمضيفِ سَوَامُ
آويتُهُ حتى تكفَّتَ خامِداً
وأهلَّ بعد جُماديين حرامُ

وصَـبـاً غَـداةَ إقَـامَـةٍ وزَعْـتُـهَـا
بِـجِـفَـانِ شِـيـزَى فـوقَـهُـنَّ سَـنَـامُ
ومَـقَـامَـةٍ غُـلْـبِ الـرقَـابِ كـأنَـهـم
جِـنٌّ لـدى طَـرَفِ الـحـصـيـرِ قِـيَـامُ
دافـعـتُ خُـطـتَـهَـا وكـنـتُ ولِـيَّـهَـا
إذ عَـيَّ فَـصْـلَ جَـوابِـهَـا الـحـكـامُ
ضَـارَسْـتُهُـمْ حـتـى يـلـيـنَ شَـرِيـسُـهُـم
عـنـي وعِـنْـدِي لـلـجـمـوحِ لِـجَـامُ
وبِكُـلِّ ذلـك قـد سعيتُ إلى العُلى
والـمـرءُ يُـحـمـدُ سَـعْـيُـه ويُـلاَمُ
مُـتـخـضِّـرِيـنَ الـبـابَ كُـلَّ عَـشِـيَّـةٍ
غُـلْـبَـاً مُـخَـالِـطُ فَـرْطِـهَـا أحْـلاَمُ
تلك ابنـةُ الـسَّـعْـدِي أضْـحَـتْ تَـشْـتَـكِي
لِـتَـخُـونَ عـهـدِي والـمـخـانَـةُ ذَامُ
ولـقـد علِمْتِ لـو إن عِلْـمَـكِ نَـافِـعٌ
وسَـمِـعْـتِ مـا يَـتَـحـدَّثُ الأقْـوَامُ
أنـي أُكَـاثِـرُ فـي الـنـدى إخْـوَانَـهُ
وأعِـفُّ عِـرْضِـي إن ألَـمَّ لِـمَـامُ

في الرثاء

وقال يرثي أخاه أربداً:

مـا إن تُـعَـرِيِّ الـمـنـونُ مـن أحـدِ
لا والـدٍ مـشـفِـقٍ ولا وَلَـدِ
أخـشـى عـلـى أربَـدَ الـحـتـوفَ ولا
أرهـبُ نـوءَ الـسِّـمـاكِ والأسَـدِ
فـجَّـعـنِـي الـرعـدُ والـصـواعـقُ بـالـ
فـارسِ يـوم الـكـريـهـةِ الـنَّـجُـدِ
الـحـارِبِ الـجـابِـرِ الـحَـريـبَ إذا
جـاء نـكـيـبـاً وإن يـعُـدْ يَـعُـدِ
يـعـفـو عـلـى الجَـهْـدِ والـسؤالِ كـمـا
أنـزل صـوبُ الـربـيـعِ ذي الـرَّصَـدِ
لـم يـبـلغِ الـعـيـن كـلَّ نـهـمـتِـهـا
لـيـلة تُـمـسـي الـجـيـادُ كـالـقِـدَدِ
كُـلُّ بـنـي حُـرَّةٍ مـصـيـرُهُـم
قُلٌّ وإن أكـثَـرَتْ مـن الـعـددِ

إن يُغْبَطوا يُهْبَطوا وإن أمِروا
يوماً يصيروا للهُلْكِ والنكَدِ
يا عينُ هَلاَّ بكيت أربد إذ
قمنا وقام الخصومُ في كَبَدِ
وعَينِ هلا بَكَيْتِ أربدَ إذ
ألوتْ رياحُ الشتاء بالعضَدِ
فأصبحت لاقِحاً مُصَرَّمةً
حين تَقَضتْ غوابرُ المُدَدِ
إن يشغَبُوا لا يُبَالِ شَغْبَهُمُ
أو يَقْصِدوا في الحكوم يقتصِدِ
حُلْوٌ كريمٌ وفي حلاوتِهِ
مُرٌّ لطيفُ الأحشاءِ والكبد
الباعثُ النوحَ في مآتِمه
مثلَ الظبَاءِ الأبكارِ بالجَرَدِ

وقال أيضاً يرثي أخاه أربد:

لن تُفْنِيَا خيراتَ أر
بَد فابكيا حتى يَعُودا
قولا هو البطلُ المحا
مي حين يُكْسَوْنَ الحديدا

وَيَصُدُّ عنا الظالمين

إذا لقينا القوم صِيدَا

فاعتاقَهُ ريبُ البرِيَّة

إذ رأى أن لا خُلُودَا[1]

فثوى ولم يُوجَعْ ولم

يُوصَبْ وكان هو الفَقِيدا

---

(١) اعتاقه: منعه من بلوغ أمله. وريب البرية: المكاره التي يصيب الدهر بها الناس. ويروى: رب البرية.

في الوصف والرحيل

ـ قال يصف رحلة الأحباب، ومناظر بقر الوحش والحمر والسيول ويفتخر بقومه بني عامر.

طافت أُسيماءُ بالرِّحال فقد
هُيِّجَ مني خيالُها طَربَا
إحدى بني جعفر بأرضِهم
لم تُمسِ مني نَوْباً ولا قُرُبا
لم أخشَ عُلوية يمانية
وكم قطعنا من عرعرٍ شُعبا
جاوزْنَ فَلْجاً فالحزْنَ يُذْ لِجْ
ىَ بالليل ومن رمل عالجٍ كُثُبا
هل يبلغَنّي دِيارَها خَرَجٌ
وَجْناءُ تَفْرِي النَّجاء والخَبَبَا
كأنها بالغمير مُمرِيةٌ
تبْغي بكتمان جؤذراً عَطِبا
قد آثرت فرقة البُغاء وقد
كانت تُرَاعِي مُلَمَعاً شَبَبَا

آتـيـك أم سـمْـحـجٌ تَـخَـيُّـرَهَـا
عِـلْجٌ تـسَـرَّى نـحـائِـصـاً شُـسُـبَـا
فـاخـتـار منـهـا مثـلَ الـخـريـدةِ لا
تـأمـنُ مـنـه الـجِـذار والـعَـطَـبـا
فـلا تـؤول إذا يـؤول ولا
تـقَـرُبُ مـنـه إذا هـو اقـتـربـا
فـهـو كَـدَلْـوِ الـبـحـري أسْـلَمـهـا الـ
حَـقـدُ وخـانـت آذانُـهـا الـكَـرَبـا
فـهـو كقِـدْحِ الـمنـيـحِ أحْـوَذَهُ القَـا
نِصُ يـنـفـي عـن مـتـنِـهِ الـعَـقَـبـا
يـا هـل تـرى الـبـرقَ بِـتُّ أرقُـبُـه
يُـزْجِـي حَـبِـيَّـاً إذا خـبـا ثَـقَـبـا
قـعـدتُ وحـدي لـه وقـال أبـو
ليـلى: متى يَـغْـتَـمِنْ فـقـدِ دَأبَـا
كـأن فـيـه لـمـا ارتَـفَـقْـتُ لـه
رَيْـطـاً وَمِـزْبَـاعَ غـانِـم لِـجـبَـا
فجـاد رهـواً إلى مـداخِـلَ فـالصُّحْـ
رةِ أمـسـت نِـعـاجُـهُ عُـصَـبَـا
قـومـي بـنـو عـامـر وإن نـطقَ الأ
عـداءُ فـيـهـم مَـنـاطِـقـاً كَـذِبـا

بمثلهم يُجْبَـهُ المُنَـاطِـعُ ذو العِـ
ز ويُـعـطي الـمـحـافظ الـجـنَـبَـا

وقال يتحدث عن الأطلال:

لـم تُـبَـيِّـنْ عـن أهْـلِهـا الأطـلالُ
قـد أتـى دونَ عـهـدِهَـا أحْـوالُ
لـيـج فـيـهـا مـا إن يُـبَـيِّـنُ لـلسـا
ئِـل إلا جـآذِرٌ ورِئـالُ
والـعَـوَاطِي الأُدْمُ الـسـواكـنُ بـالـسُّـلا
نِ مـنـهـا الآحـادُ والآجـالُ
وَشَـتِـيـمٌ جَـوْنٌ يُـطارِدُ حُـولاً
أخْـدرَيٌّ مُـسَـحَّـجٌ صَـلْصَـالُ
وقَـنَـاةٌ تـبـغـي بـخَـرْبَـةَ عَـهْـدَاً
من ضَبـوُحٍ قَـفَّى عليـه الخَـبـالُ
نـظرْتْ عـهـدَهُ وبـاتـت عـلـيـهِ
بـيـن فـلـجٍ واللُّـوْذِ غُـبسٌ بِـسَـالُ
فـابـتـغـتـهُ بـالـرمـلـتـيـنِ ثـلاثـاً
كـلُ يَـوْمٍ فـي صَـدْرِهـا بَـلْيَـالُ
ثـم لاقَـتْ بَـصِـيـرَةً بـعـد يـأسٍ
وإهـابـاً فـي بَـعْـضِـهِ أوْصَـالُ

نماذج من شعره

في التأمل والحكمة

قال يذكر طول عمره وسأمه من الحياة ويتحدث عن مآثره ومقاماته ويوازن بين ما كان وما صار إليه من ضعف.

قُضِيَ الأمورُ وأُنْجِزَ الموعُودُ
والله ربي ماجِدٌ محمودُ
وله الفَواضِلُ والنوافِلُ والعُلا
وله أثيثُ الخيرِ والمعدودُ
ولقد بلتْ إرمٌ وعادٌ كيدَهُ
ولقد بَلَتْهُ بعدَ ذاك ثمُودُ
خلوا ثيابَهُمُ على عوراتِهِمْ
فهم بأفنِيَةِ البيُوتِ هُمُود
ولقد سَئِمتُ من الحياة وطولِها
وسُؤالِ هذا الناسِ كيف لبيدُ
غلبَ العزاءَ وكنتُ غيرَ مُغَلَّبٍ
دَهْرٌ طَوِيلٌ دائم ممدود

يـومٌ إذا يـأتـي عـلـيَّ ولـيـلةٌ
وكـلاهـمـا بـعـد الـمَـضَـاءِ يـعـود
وأراه يـأتـي مـثـل يـومِ لـقـيـتُـهُ
لـم ينصـرمْ وَضَـعُـفْـتُ وهـو شـديـد
وحـمـيـت قـومي إذ دعـتـنـي عـامِـرٌ
وتـقـدمَـتْ يـوم الـغَـبِـيطِ وفُـود
وتَـداكَـأتْ أركـانُ كـلُ قـبـيـلةٍ
وفَـوارِسُ الـمـلكِ الـهُـمَـامَ تـذود
أكـرمتُ عِـرضـي أن يُـنـال بـنَـجْـوَةٍ
إن الـبـريء مـن الـهـنَـاتِ سَـعـيـدُ
مـا إن أهـابُ إذا الـسـرادِقُ غَـمَّـةٌ
قَـرْعُ الـقِـسـيِّ وأرْعشَ الـرِّعـديـدُ

ـ وقال يصف تغير الناس والأيام ويذكر أخاه أربد، ويتحدث عن مآثره التي حققها:

قَض اللُّـبـانَـةَ لا أبـالـك واذْهَـبِ
والـحـقْ بـأُسْـرتـك الـكِـرام الـغُـيَّـبِ
ذهـب الـذين يـعُـاشُ فـي أكـنـافِـهـم
وبَـقـيـتُ فـي خَـلفٍ كـجـلدِ الأجـربِ

يتأكَّلون مَغالَةً وَخِيانَةً
ويُعَابُ قائِلُهُم وإن لم يَشْغَبِ
يا أربَدَ الخيرِ الكريم جدودُهُ
خَلَّيْتَنِي أمشي بقرنٍ أعْضَبِ
لولا الإلهُ وسعيُ صاحبِ جِمْيرِ
وتَعَرُّضِي في كل جَوْنٍ مصْعَبِ
لتيقظت عَلَكَ الحجاز مقيمةً
فجَنُوبَ ناصِفَةٍ لِقَاحُ الحوأبِ
ولقد دخلتْ على خُمَيتَّرَ بَيْتَهُ
متنكراً في ملكه كالأغْلبِ
فأجازني منه بِطِرسٍ ناطِق
وبكل أطلَسَ جَوْبُهُ في المنكِبِ
إن الرزِيَّةَ لا رزية مِثلُها
فِقدانُ كلِّ أخٍ كضوءِ الكوكب

لمحة موجزة عن أسلوب لبيد:

انطبع أسلوب لبيد بطابع البداوة والصحراء، وقد وقف العلماء حائرين أحياناً في تفسير بعض الألفاظ التي وردت في شعره، إذ أنها معقدة مغرقة في الغموض، ومن هنا جاء أسلوبه جافاً في بعض القصائد، ولكنه في أخرى كان جزلاً واضحاً، رصيناً معجباً، امتاز بجمال اللفظ ومتانته، ورقة الأوزان والقوافي، والأداء الموسيقي الجميل. وحكمنا على أسلوب لبيد لا يجب أن يصدر من منظار العصر الحديث، ولغة الشعر اليوم، وإنما يجب أن يحكم عليه من خلال العصر الذي عاش فيه.

وعندي أن لبيداً كان مجدداً في بعض معاني الشعر وأفكاره. وخاصة في معانيه الدينية والحكمية، وفي دعوته إلى تنقية الحياة من رواسب التمزق والألم، والانتقال بها إلى منابع صافية نقية.

وشعره الذي اتسم بالخشونة ذلك الذي صور فيه مناظر الصحراء، وتحدث عن حيواناتها، وافتخر فيه بأمجاد قبيلته، ولبيد المعروف بأسفاره المتواصلة عرف كل جهات الصحراء وخبرها ومن الطبيعي أن تكون ألفاظه ملاءمة لواقعه الحياتي والمعيشي، ولذلك فإن في شعره ذخيرة كبيرة من اللغة النجدية التي أصبح شعره شواهد لها في كتب اللغة.

وقد تناول لبيد في شعره كل ما دار حوله وما شاهده من إنسان وحيوان وشيء، كما أننا نلمح النزعة القصصية في قصائد الرحيل، فقلما تمرّ قصيدة يصف فيها الصحراء إلاّ وقص علينا قصصاً مثيرة فيها، تتناول الصراع على البقـاء والوجود، والنضال في سبيل الحياة الكريمة.

وخيال الشاعر مادي، إذ انتزع صوره من صميم الواقع الذي عاش فيه، وليس معنى ذلك خلو شعر لبيد من المواقف الجمالية المبدعة، فللشاعر لقطات تصويرية موفقة، تكشف عن بصيرة ثاقبة وعقل نيـر.

وفي بعض قصائد لبيد أفكار خالدة إنسانية أخلاقية، تبني الإنسان وتوجهه وهي ثمرة تجارب غنية خبر فيها الشاعر الحياة ورأى تناقضاتها فاندفع بحس اجتماعي إلى الدعوة للخير والفضيلة والتعاون.

ويجد دارس لبيد كثرة التكرار في معانيه، خاصة في فني الرثاء والفخر، حتى أن بعض الأفكار ترد أكثر من مرة في القصيدة الواحدة، كما تتعـدد الفنون الشعـرية في بعض قصائده، خاصة في وصف الأطلال ومشاهد الرحيل، فهو يقف على الآثار الدارسة ويتغزل ويصف ثم يفتخر، شأنه في ذلك شأن معاصريه من الشعراء الجاهليين.

مصادر البحث ومراجعه

- أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني - بيروت - دار الثقافة سنة ١٩٨٣ م - ج ١٥.
- ابن سلام الجمحي - طبقات الشعـراء - بيروت - دار المعرفة.
- ابن قتيبة - الشعر والشعراء - بيروت - دار إحياء التراث.
- ديوان لبيد بن ربيعة - بيروت - دار صادر.
- د. مفيد قميحة - شرح المعلقات العشر - بيروت - دار الهلال.
- طه حسين - تاريخ الأدب العربي - بيروت - دار العلم للملايين سنة ١٩٨٢.
- علي الجندي - تاريخ الأدب الجاهلي - بيروت - مكتبة الجامعة العربية - سنة ١٩٦٦ م - ج ١.
- وهب رومية - الرحلة في القصيدة الجاهلية - نشر اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين سنة ١٩٧٥.

محتويات البحث